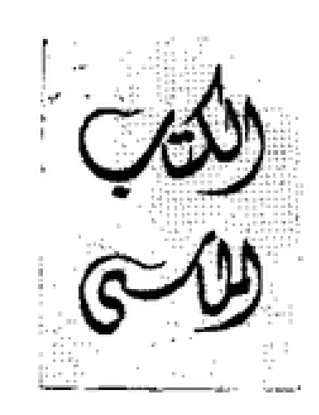


تاريخ ما أهمله التاريخ

قياصرة وسلاطين

بقلم حبيب جاماتي

إهداء

الى الأصدقاء الذين نقلوا لى ، باللغة العربية او الفرنسية ، من المكتبات التركية واليونانية ، مقتطفات من مخطوطات قديمة قيمة ، ساعدتنى فى صياغة بعض هذه القصص عن قياصرة الروم فى((بيزنطة)) وسلاطين آل عثمان فى ((الآستانة)) أهدى هذه الحلقة من سلسلة ((تاريخ ما أهمله التاريخ)) اعترافا بفضلهم ، وتقديرا لمعونتهم ، واشفع هذا الاهداء بتحية خالصة الى الباقين على قيد الحياة منهم — طالت أعمارهم — وبدمعة حارة على مثوى الذين حوتهم الأكفان فأمسوا ، مثل هذه القصص ، قطعة من الماضى ، تغمدهم الله برحمته !

القاهرة ح٠ج

تصـــدير

حوادث هذه القصص ، المستخلصة من «هوامش» التاريخ ، وقعت كلها في نطاق الامبراطورية الرومية والامبراطورية العثمانية السابقتين : الأولى زالت من الوجود ، والأخرى تقلص ظلها ، وتعرف البقية الباقية منها اليوم باسم « تركيا » او الجمهورية التركية .

الأولى حكمت جزءا من بلدان العرب . والاخرى بسطت سلطانها على معظم هذه البلدان .

عاصمة الاولى أصبحت ، بعد هزيمة آخر القياصرة ، عاصمة للأخرى ومقرا للسلطان .

ولهذه العاصمة أســـــماء عدة : ليقوس . بيزنطة . قسطنطينية . أسلامبول ، اسطانبول ، آستانة .

كانت قبل الميلاد قرية صغيرة ، وأطلق عليهـــا اسم « بيزانس ــ بيزنطة » جماعة من المهاجرين الاغريق وتوافد عليها الغزاة ، فوجا بعد فوج ، الى أن طوتها دولة روما بين حدودها ، فأصبحت تابعة للمدينة العظيمة التي حكمت العالم المعروف في وقت من الأوقات .

كان الرومانيون وثنيين . وفي القرن الرابع للميلاد ، قرر الامبراطور قسطنطين قيصر ، الملقب بالكبير ، أن يعتنق المسيحية ويجعلها دين الدولة الرسمي ؛ وأن ينقل عاصمة الامبراطورية من الغرب الى الشرق . فوقع اختياره على بيزنطة ، وأطلق عليها اسمه ، فعرفت باسم « قسطنطينية » منذ اليوم الحادي عشر من شهر مايو سنة ٣٣٠ للميلاد .

وأحيطت العاصمة الجديدة ، في الاعوام التالية ، بأسوار منيعـــة وأبراج شاهقة . وساعد موقعها على تحصينها . فهي تمتد على الساحل عند ملتقى مضيق البوسفور ببحر مرمرة الداخلي ، ويشقها الى شطرين .

لسان مائى يعرف بالقرن الذهبى ـ لأنه يشبه القرن ـ وهو من أحسن الموانى الطبيعية . ويربط البوسفور بين المدينة والبحر الأسـود الى الشرق ، ويربط مضيق الدردنيل بينها وبين البحر المتوسط الى الغرب .

ولما انقسمت الامبراطورية الرومانية الى دولتين ، بقيت « روما » عاصمة الدولة الرومانية الغربية السـائرة الى الانهيار ، واصبحت «بيزنطة» أو «قسطنطينية» عاصمة الدولة الرومانية الشرقيةالصاعدة . وهى التى يعرفها العرب باسم « الدولة الرومية » أو « دولة الروم » وقد تغلبت فيها الصبغة الاغريقية اليونانية على الصـبغة اللاتينية الايطالية ، التى امتازت بها روما وامبراطوريتها .

عاشت الامبراطورية الرومية الشرقية أو امبراطورية بيزنطة أكثر من الف ومائة سنة . فقد هاجم العرب اطرافها فى القرن الهجـرى الأول ، والسابع للميلاد ، واقتطعوا منهـا أقاليم عدة فى الشرق الادنى وفى افريقية . فانكمشت مع الايام واقتصرت ممتلكاتها على العاصمة والبقاع المجاورة لها فى البلقان وآسيا الصغرى . وجاءتها الضربة القاضية على ايدى الغزاة الترك . فاستولى السلطان محمد الثانى الملقب بالفاتح على مدينة قسطنطينية سنة ١٤٥٣ . وطويت بذلك الحادث آخر صفحة من تاريخ الامبراطورية الرومية .

وحلت قسطنطينية محل أنقرة وأدرنة أو ادريانوبولس ، العاصمتين العثمانيتين السابقتين ، فأصبحت المدينة الرومية عاصمة السـلطنة العثمانية . وعرفت منذ ذلك الوقت باسم « اسلامبول ـ استانبول ـ آستانة . »

وختم تاريخها كعاصمة للعثمانيين بعد الحرب العالمية الثانية ، يوم انشأ مصطفى كمال اتاتورك النظام الجمهورى . وأسقط النظام الملكى ، وطرد السلطان ، وجعل مدينة أنقرة ، مرة أخرى . عاصمة للجمهورية التركية ، كما كانت قبل ذلك ببضعة قرون ، عاصمة للسلطنة الناشئة .

وعلى هذا ، تكون استانبول قد ظلت اذن عاصمة للدولة العثمانية مدة ٤٧٠ سنة !

وكان السلطان العثمانى سليم الأول ، فى القرن الميلادى السادس عشر والقرن الهجرى العاشر ، قد جعلها مقرا للخلافة الاسلامية ، التى أخذها آل عثمان من العباسيين . ففقدت استانبول هذه الصفة ايضا ، يوم أعلن الترك الغاء الخلافة فى بلادهم .

فمن هذه المدينة المتعددة الأسماء ، حكم القياصرة الروم ثم السلاطين العثمانيون ، امبراطورية واسعة المســـــاحات مترامية الأطراف . وبين العهد البيزنطي والعهد العثماني، نشأت الامبراطورية العربية وترعرعت، وحكمت من دمشق والقاهرة وبغداد معظم البلدان التي خضعت من قبل للحـــــكم البيزنطي ، أو خضعت من بعد للحـــــكم العثماني . وشملت الامبراطورية العربية بلدانا أخرى لم يمتد اليهـــــا سلطان البيزنطيين والعثمانيين ، في آسيا وافريقية وأوروبا .

فتاريخ القياصرة والسلاطين الذين كانت بيزنطة أو قسطنطينية أو الآستانة مقر عروشهم ، له ارتباط مباشر أو غير مباشر بتاريخ الامة العربية ، والتطورات التي مرت بها الشعوب التي تتألف منهـــا هذه الامة .

فقبل قيام الدولة العربية ... كان العرب تابعين للقياصرة الروم في بيزنطة . وبعد انهيار الدولة العربية أصبحوا تابعين للسلاطين العثمانيين في الآستانة . فقيام الدولة العربية في القرن الميلادي السابع حررهم من الحكم البيزنطي . وبعث القومية العربية في القرن العشرين حررهم من الحكم العثماني .

وتاريخ القياصرة والسلاطين مليء بالدروس والعبر والعظات . والقصص التي يضمها هذا الكتاب ترفع طرفا من الستار عن خفايا ذلك التاريخ في بعض احقابه ــ وعنوان هذه المجموعة : «قياصرة وسلاطين» يدل على حصرها في حدود ذلك التاريخ .

وهذه الحلقة التاسعة من سلسلة قصص « تاريخ ما أهمله التاريخ» وبصدورها تكون « الدار القوميـــــة للطباعة والنشر » قد أصدرت في « الكتاب الماسي » الحلقات الآتية من هذه السلسلة :

ــ الحلقة الأولى : بطولات عربية .

ــ الحلقة الثانية : الناصر صلاح الدين .

ــ الحلقة الثالثة : مصر مقبرة الفاتحين .

ــ الحلقة الرابعة : اندلس العرب .

ــ الحلقة الخامسة : الجنة في ظلال السيوف .

ــ الحلقة السادسة : مصر الاقدمين .

ــ الحلقة السابعة : بين جدران القصور .

ـ الحلقة الثامنة : على ضفاف النيل .

ـ الحلقة التاسعة : قياصرة وسلاطين .

وهذه الحلقة الجديدة تضم عشرين قصة وقعت جميع حوادثها في مدينة بيزنطة ، أو قسطنطينية . أو استانبول ، أو الآستانة ، في عهد القياصرة الروم أو في عهد السلاطين العثمانيين . أو كانت ناحية أخرى من بقاع الامبراطورية الواسعة مسرحا لها .

حبيب جاماتى

القاهرة : في شعبان ١٣٨٢ هـ

يناير ـ كانون الثانى ـ ١٩٦٣ م



الامبراطور قسطنطين قيصر
نقل عاصمة الامبراطورية الرومانية من روما
الى بيزنطة واطلق عليها اسمه فاصبحت
« القسطنطينية »



ان عزرائيل يعرف أحيانا
كيف يختار الوقت المناسب
للقبض على الأرواح ! ..

الامبراطورة تيودورا

عاد يستينوس في تلك الليلة ، الى داره الفخمة ، التي على ضفاف البوسفور . في ساعة متأخرة ، وقد بدا عليه التعب ولكنه تعب ممزوج بالغبطة والارتياح ..

واقبلت زوجته فاتحة ذراعيها ، مرحبة به عند الباب . فهي عادة سارت عليها منذ اتخذها القائد الشجاع شريكة لحياته .

تعانق الزوجان عناق شابين محبين ، بالرغم من ولوجهما باب الشيخوخة . واشتداد وطأة السنين على اكتافهما . فهو في السادسة والستين من العمر ، وهي ليست أصغر منه بكثير !

وقالت « لوسيبيا » بصوت فيه خشونة وحنان في آن معا :

ــ شغلت بالي بتأخرك ايها الحبيب !

فأجاب يستينوس بصوت لا يقل خشونة ولا حنانا عن صوت زوجته :

ــ ليست هذه اول مرة ايتها الحبيبة اعود فيها الى البيت في منتصف الليل ، فعلى قائد الحرس الامبراطوري في بيزنطة واجبات كثيرة

ــ ان العاصمة في قلق ، والخواطر هائجة ، والجو ملبد بالشكوك .

ــ لا غرابة في أن تكون الحالة على ما وصفتها ، فان اشراف الامبراطور على الموت ، وخلو العرش من بعده ، وتردد عظماء الدولة وقادتها في اختيار خلف للعاهل المحتضر ، كل ذلك ليس من شأنه بعث الطمأنينة في النفوس ولكننا اليوم وصلنا الى حل لهذا التردد .

ــ كيف ذلك ؟

ــ انني لا اخفي عنك شيئا يا لوسيبيا ، فاعلمي ان « امانثيوس » الوزير الاول ، القابض على بيت المال . راغب في المناداة بصديقه « تيودات » امبراطورا على بيزنطة ، خلفا للامبراطور (انستاسيوس)

وقد افرغ امله فى ، واعطانى ثقته ، ووضع تحت تصرفى خزائن الدولة ، لكى اغترف منها ما اشاء ، وانفق بلا حساب واغدق المال على الناس بسخاء لكى اضمن لتيودات الفوز بالعرش والقضاء على منافسيه .

— وقبلت هذا ؟

— نعم !

— وقبضت المال ؟

— اخذت مفاتيح الخزائن واصبح المال فى حوزتى !

— وستنفق منه لترفع تيودات الى العرش ، وتضع على رأسه تاج القياصرة ، وتخضع له الخصوم والمنافسين ، وتفتح له بجيشك الاقطار والامصار ؟

— نعم !

— وقطعت على نفسك عهدا بهذا ؟

— نعم ، واقسمت عليه !

القت لوسيبيا بنفسها على مقعد . وارتسمت على فمها ابتسامه ساخرة ، وانطلقت من بين شفتيها هذه الكلمات :

— كنت اظنك ذكيا يا يستينوس ، واذا بك تثبت لى الآن بالادلة والبراهين ، انك على جانب عظيم من البله والغباء !

وصعق القائد عند سماعه هذا التأنيب المؤلم ، وجمد فى مكانه كالصنم شاحب الوجه معقود اللسان !

لم يكن يستينوس بيزنطى المولد ولا رومى النسب . بل انه ينتمى الى قبيلة من الصقالبة ضاربة على ساحل البحر الادرياتيكى . هناك رأى النور ، وهناك نشأ حرا طليقا يرتع على الرمال ، وفى داخل الادغال . وتطوع فى الجيش البيزنطى منذ نعومة اظفاره ، وانتقل من معسكر الى معسكر ، ومن بلد الى بلد ، يعيش مثل غيره من جنود ذلك العصر ، يقاتل فى المعارك وينهب بعد النصر ، ويبحث عن ملاذ الحياة حيث يجدها .

وفى احدى غزواته ، كان نصيبه من السلب جارية سمراء البشرة حادة البصر فارعة القامة مثله . فاتخذها عشيقة له ، ثم زوجة حليلة .

ولما قادته الظروف والاحوال الى بيزنطة ، فى سنة ٤٩٨ للميلاد ، رافقته الزوجة السمراء لوسيبيا الى العاصمة ، واقامت معه فى دار

من دور الضيافة ، فى انتظار أن يصل الى الهدف الذى جاء من اجله الى عاصمة الامبراطورية : التطوع فى الحرس الامبراطورى !

كان يستينوس فى السادسة والاربعين ، وكانت لوسيبيا فى نحو الاربعين .

وفى بضعة أعوام ، قطع الجندى المقدام ، شوطا بعد شوط ، الطريق الطويل الشاق ، الفاصل بين أسفل درجات الجندية وارفع مراتب القيادة . فقد أصبح يستينوس قارع طبول الحرس ، ثم حامل العلم ، ثم ضابطا فى فرقة الفرسان ، ثم قائدا . واخيرا انعم عليه الامبراطور انستاسيوس بلقب رفيع ، ووضعه على رأس الحرس ، واختاره عضوا فى مجلس الشيوخ .

وفى جميع تلك المراحل ، كانت زوجته لوسيبيا الرفيق الوفى ، والصديق الأمين ، والمرشد المخلص .

كان يستينوس من أصل وضيع . وكانت هى مثله . بل ان المرأة التى قدر لها أن تشارك الجندى المحظوظ فى سرائه وضرائه ، كانت فى الواقع ، قبل ان تقع فى الأسر ، جارية فى بيت أسرة من الأسر الصقلبية الغنية . ولكنها اثبتت ، كما أثبت زوجها فيما بعد أن السيد الحقيقى ليس دائما ذلك الذى يتمتع بالثروة وينعم بالجاه . وأن العبد الحقيقى ليس دائما ذلك الذى اشتراه السيد الغنى بماله،أو ساقه قائد منتصر اسيرا بعد معركة . فكم من أسير مستعبد تجرى فى عروقه دماء أوفر نبلا واكثر صفاء من دماء فاسدة تجرفها الرذيلة فى عروق أصحاب السطوة والجاه .

تلك كانت حالة يستينوس ، ابن الشعب الذى أصبح قائدا لحرس قيصر ، فرفعته كفايته الى أعلى المناصب ، ولوسيبيا زوجته ، الجارية السبية ، التى حافظت على تواضعها ، وأنارت الظلمات أمام زوجها بآرائها السديدة ونظراتها الثاقبة .

انها لا تعلم من أين جاء أهلها ، ولا من هم ، ولا أين ولدت وكيف نشأت وبأى نزوة من نزوات الزمن اصبحت جارية تخدم فى بيوت الاثرياء ؟

قيل لها ، وهى طفلة ، ان اباها مصرى وأمها يونانية . وقيل لها انها رأت النور فى الاسكندرية ، وان أباها رومانى من جزيرة صقلية ، كان رئيسا للكناسين فى العاصمة المصرية . وقيل لها ان أمها افريقية

من برقة ، سباها جندى صقلبى وجاء بها الى جبال البلقان حيث ولدت هى ، لوسيبيا ، ثم ماتت الأم والاب وشردت الابنة فعادت جارية مثل أمها. وقيل لها غير ذلك من روايات لم تأبه لوسيبيا بهـــا ، لان حاضرها كان يشغل بالها أكثر من ماضيها ، ولأن همهـــا الوحيد كان تأمين غدها ، لا كشف النقاب عن أمسها . وسـواء أكان دمها مصريا أم يونانيا أم صقلبيا أم رومانيا ، فان المرأة كانت تشعر بأنها جديرة بحال أفضل من الحال التى كانت فيها ، وأنها ولدت لتكون فى مستوى رفيع .

وشاءت الاقدار أن تحمل لوسيبيا على أجنحتها وتعلو بهـــا الى القمـــة !

ذهبت الى بيزنطة مع زوجها وهو جندى ، وبعـــد سنوات أصبح الجندى قائدا وعضوا فى مجلس الشيوخ وحامل لقب من أضخم القاب الشرف فى الدولة .

وربطته صداقة متينة بالوزير الاول « أمانتيوس » فاصطفاه الوزير واتخذه أمينا لاسراره . ولما أشرف الامبراطور أنستاسيوس على الموت ، وفتح باب التنافس على العرش . أفضي أمانتيوس الى صدقه وصفيه يستينوس بما يجول فيخاطره ويختلج فيصدره : انه يريد رفع«تيودات» الى العرش ، لأنه قريب الامبراطور . ولأنه ضعيف الارادة قصير النظر فلن يصـــعب على أمانتيوس أن يسيطر عليه ، ويشرك فى ســـــيطرته الصديق الوفى يستينوس قائد الحرس !

وراقت الفكرة ليستينوس ، ووعد صديقه بأن يفعل ما يطلبه منه ، ورجع الى بيته فى تلك الليلة ، وهو يعتقد أن زوجته ستشاطره الرأى، وانها سترتاح الى الاتفاق الذى تم بينه وبين الوزير الاول .

ولهذا ، جمد فى مكانه كالصنم ، شاحب الوجه معقود اللسان ، لما فاجأته الزوجة قائلة بتهكم وسخرية :

ـــ كنت أظنك ذكيـــا يا يستينوس ، واذا بك تثبت لى الآن بالأدلة والبراهين أنك على جانب عظيم من البله والغباء !

ماذا كانت تريد لوسيبيا ، وما الـــــذى جعلها تسخر بزوجهـــــا وتتهكم عليه ؟

انها لاتفهم كيف أن الرجل الذى فى وسعه أن يرفع غـــيره الى العرش ، لايرفع نفسه اليه !

لا تفهم كيف يكون المال متوافرا لزوجها ، والفرصـــــة سانحة ،

والميدان خاليا ، ليقبض على السلطة في الدولة البيزنطية ، ويحل محل قيصر بعد موته ، وينهض بالامبراطورية من كبوتها ، فلا يفعل شيئا من ذلك بل يعمل لحساب الغير ، ويجلس على عرش القياصرة رجلا خاملا ، خائر العزيمة ، ويكتفي هو بدور ثانوي ، في مسرحية يمكنه أن يقوم فيها بالدور الاول !

« انك على جانب عظيم من البله والغباء ! » ان لوسيبيا اعلى حق فيما تقول ، وان يستينوس لأبله غبي !

أدرك الرجل ذلك ، وأقر زوجته على رأيها ، وبدل أن يعمل لحساب تيودات ، كما أراد منه أمانتيوس الوزير الاول ، راح ينشر الدعوة لنفسه ، ويغترف المال من الخزائن ملء يديه وينفقه لاستمالة عظماء المملكة وصعاليكها على السواء ، وما دام عرش بيزنطة يباع بالمزاد ، وما دام المال في النهاية هو العامل الفاصل في رجحان كفة الميزان الى ناحية هذا أو ذاك من المتنافسين المتزاحمين ، فانه لمن البله والغباء حقا ان يشتري يستينوس الضمائر والاصوات لحساب غيره لا لحسابه هو !

لم ينم يستينوس في تلك الليلة ، بل خرج من بيته ثانية ومعه زوجته .

وما طلع الصباح حتى كان كل شيء قد تم أو أوشك أن يتم ، لا على حسب رغبة أمانتيوس الوزير الاول ، بل على حسب رغبة يستينوس قائد الحرس ، وزوجته لوسيبيا !

وفي التاسع من شهر يوليو سنة ٥٤٨ لفظ انستاسيوس الأول انفاسه الأخيرة ، وهو في الثامنة والثمانين من العمر .

وفي اليوم التالي ، خرجت كتائب الحرس الامبراطوري الى شوارع العاصمة الكبيرة ، وتدفق الشعب على الميادين من كل صوب ، وما انتصف النهار حتى كان يستينوس الأول محمولا على الاعناق ، وجالسا على عرش القياصرة !

وكان في السادسة والستين من العمر ، وشاركته الزوجة الوفية في الملك وظلت بجانبه الصديقة الامينة والمرشدة المخلصة .

وفي مساء ذلك اليوم ، وضع الامبراطور يستينوس الاول خطة العمل بالاشتراك مع الامبراطورة لوسيبيا .

سألها قائلا :

ــ ما اقتراحاتك أيتها الحبيبة العزيزة ؟

فأملت عليه المرأة ما يلي :

ــ يجب أولا ان أختار لنفسي اسما غير هذا الاسم : لوسيبيا !.

ــ ان الشعب سيختار لك الاسم الجديد !

ــ ويجب ان تقتل الوزير الاول امانتيوس قبل أن يتآمر عليك ويشتري العرش لسواك !

ــ سيقتل أمانتيوس !

ــ ويجب أن تختار أحد أقاربك وليا للعرش ووارثا لك بعد موتك ، لان الله لم يمنن عليك بأبناء .

ــ سأختار ابن أخي يستنيانوس !

ــ ويجب أن تبحث حواليك عن كل من يمكن أن تحدثه نفسه بالتآمر لتتخلص منه قبل أن يتخلص منك .

ــ سأفعل !

ــ ويجب أن تسعى لارضاء الشعبورفع مستوى معيشته وتحسين أحواله ، فالشعب هو في الواقع عماد العروش ، اذا رضي أبقاها ، واذا غضب دكها .

ــ سأكون عند حسن ظن الشعب !

وبعد ابئذ ، طلب يستينوس من الشعب ان يختار للامبراطورة اسما جديدا فسماها الناس « أفاميا » .

وأمر الامبراطور بخنق الوزير الاول أمانتيوس فخنق .

وجمع رجال الدولة وطلب منهم أن يوافوه بكل ما يعبر عنه أبناء الشعب من الأماني والمطالب ، لينفذها في الحال ، وهكذا كان .

وتبنى ابن أخيه «يستنيانوس» وأعده ليكون امبراطورا من بعده . وكان يستنيانوس قد تزوج أيضا خليلته ، كما فعل عمه من قبل ، واسم تلك الخليلة « تيودورا » وهي التي قامت في تاريخ بيزنطة بدور لم تقم به امبراطورة أخرى . أما زوجها يستنيانوس ، فقد كان ، بعد قسطنطين منشيء الامبراطورية الرومانية الشرقية ، أشهر قياصرة بيزنطة .

ومن أغرب ما حدث بعد ارتقاء « أفاميا » العرش مع زوجها ، انها

ارادت ان تحول دون زواج يستنيانوس بخليلته تيودورا ، مدعية أن فى ذلك ما يسيء الى سمعة الامبراطور القادم ، ويحط من قدره . ناسية او متناسية انها هى لم تكن غير جارية مجهولة الأصـــــل . وخليلة لجندى أصبح فيما بعد أمبراطورا . وان « أفاميا » اليوم هى (لوسيبيا) الأمس !

ولو لم تمت أفاميا فى سنة ٥٢٣ . أى قبل وفاة زوجها ببضعة أعوام ما أصبحت تيودورا زوجة ليستنيانوس . وما اعتلت العرش معه بعد موت يستينوس . ولتغير بسبب ذلك مجرى التاريخ فى الشرق والغرب !

وهذا ما جعل تيودورا ، الراقصة التى طمعت فى العرش ونالته . تقول لحبيبها يستنيانوس ، يوم أعلن خبر وفاة الامبراطورة الجارية أفاميا : « حقا . ان عزرائيل يعرف أحيانا كيف يختار الوقت المناسب للقبض على الارواح ! »

أما يستينوس الاول ، فقد جلس على عرش القياصرة من سنة ٥١٨ الى سنة ٥٢٧ ، وكان عهده مقدمة لعهد أسرة اليستانيين الذين رفعوا بيزنطة الى أوج العظمة والمجد .



الأعمال الصالحـــة تمحو السيئات . فهل محيت سيئات تيودورا بعـــد أن شيدت فى بيزنطة « دار التـــوبة ؟ »



القسطنطينية ـ أو بيزنطة ـ أو استانبول ،
رسم قديم يبين المدينة العظيمة كما تبدو
من البوسفور وبحر مرمرة

دخلت الوصيفة على الامبراطورة « تيودورا » وانحنت الى الأرض ثم تقدمت وهمست فى أذن مولاتها هذا الاسم : « ميخائيل ! » فرفعت تيودورا راسها ، وسألت :

ـــ الكبير أم الصغير ؟

فأجابت الوصيفة :

ـــ الكبير يامولاتي .. ويبدو عليه القلق والاضطراب .

ـــ ليدخل .

خرجت الوصيفة فنهضت تيودورا من مكانها وقادت الفهد الأليف الذى كان نائما على قدميها الى حجرة مجاورة ، ثم عادت الى الوسائد الملقاة أمام النافذة المطلة على البحر ، واستلقت عليها .

ودخل فى تلك اللحظة شاب فى الثلاثين من العمر : طويل القامة ، أزرق العينين ، أشقر الشعر .

جثا « ميخائيل » على ركبتيه ووضع قبلة حارة على اليد التى بسطتها له الامبراطورة .

لكنها ما لبثت أن فتحت له ذراعيها ، فألقى بنفسه فى أحضانها ، وغمر وجهها وعنقها وصدرها بالقبلات الملتهبة .

ثم أجهش فجأة بالبكاء ، وقال :

ـــ أممكن هذا .. ؟ . أصحيح أنك تعرضين عنى ، وترغبين الى فى أن أبتعد عن هذا القصر ولا أعود اليه بعد الآن ؟ ماذا طرأ على حبنا ؟ واى عاطفة حلت فى قلبك محل ذلك الغرام ؟

فأخذت تيودورا رأس الشاب بين يديها ، وقالت :

ـــ ميخائيل : اصغ الى : لقد أحببتك ولا أزال أحبك يا حبيبى ! لكن فى الحياة ظروفا وحالات ينبغى للانسان أن يحترمها ويحسب لها حسابا، لقد احببتك قبل أن أدخل هذا القصر ، وأعتلى عرش بيزنطة ، وأصبح

امبراطورة وزوجة أمبراطور ! وحافظت على ذلك الحب فيما بعد ، ومهدت لك السبل لكى تأتى خلسة الى مخدعى الامبراطورى ، وتقضى معى الأيام والليالى ، الى أن حدث حادث قد تكون عاقبته وخيمة علينا .

— اى حادث هذا ؟

— جاءنى اخوك منذ أيام ، وطلب المثول بين يدي فأذنت له بذلك ظنا منى أن القادم هو أنت بنفسك . لان اخاك يدعى مثلك ميخائيل .

— وماذا كان يطلب ؟

— جاءنى يعرض على حبه مثلك ايضا ؟

— الخائن ! وماذا قلت له ؟

— طردته من القصر طردا . فخرج من عندى غاضبا مهددا قائلا : انه سيشيع فى المدينة خبر علاقاتنا الغرامية . ويطلع عليها الامبراطور قبل الرعية !

— ياله من مجنون اعمى !

— فبعد هذا الحادث ، ينبغى أن تنقطع عن المجىء الى هذا القصر ، الا اذا . . . اذا . . .

— اذا . . .

— الا اذا عدل اخوك عن عزمه ، أو زال من عالم الوجود !

— سأقتله الليلة ! .

وغادر « ميخائيل الكبير » كما سمته تيودورا ، حجرة الامبراطورة العاشقة . وهو يردد قائلا : « سأقتله الليلة ! » .

***

بدأت تيودورا حياتها راقصة فى ملعب ، وهى ابنة « اكاسيوس » مروض الوحوش . اما أمها فان اسمها مجهول وسيظل الى الابد مجهولا .

مات أبوها وهى صبية ، فضاقت الدنيا فى وجهها ، وبحثت عن الرزق وسعت اليه فى مختلف الانحاء وبشتى الأساليب ، فكانت تلتقطه حيثما تجده ، فى القصور والاكواخ والشوارع والحانات والمواخير .

أما الحب فانها لم تعرفه ، ولم تدع له سبيلا للتسلط على قلبها ،

بل كانت تتاجر بمحاسنها وجمالها كما يتاجر البائع بالسلع . فيعطيها من يدفع أكثر من سواه !

ورزقت ابنة جميلة كأمها ، فخشيت تيودورا على الطفلة فى ذلك الوسط الموبوء الذى كانت تعيش فيه ، فابتعدت عن الملاهى والملاعب ودور التمثيل والرقص ، وجعلتمنذ ذلك الوقت تشتغل فى صنع الاحذية والأزياء النسائية .

وترددت على بيتها نساء الطبقة الشريفة فى بيزنطة . ووقع عليها ذات يوم نظر الامير يستينيانوس ، ولى عهد الامبراطورية الشرقية .

فأحبها ، وهام بها ، ونسي من أجلها ما عداها من النساء ، وهجر الفتاة التى كان أبوه قد أعدها زوجة له ، وأراد أن يتزوج تلك البائعة : تيودورا الجميلة .

لكن ماضي المرأة ، وسيرتها ، والمهنة التى كانت تحترفها ، والاسم الملطخ بالعار الذى تحمله ، كل ذلك حال دون رغبة الامير وامنيته ، لأن قوانين الدولة تحرم على امراء البيت المالك أن يختاروا زوجاتهم من غير البيئة التى ينتمون اليها .

لكن يستينيانوس لم يكن من أولئك الرجال الذين تتولاهم الحيرة فى مثل هذه الظروف .

سن قوانين جديدة محل القوانين القديمة ، وأجاز للأمراء ان يتزوجوا من يشاءون من النساء ، حتى لو كن من الممثلات او الراقصات او البغيات !

وما جلس يستينيانوس على عرش بنزيطة الا وتيودورا بجانبه ، وعلى رأسها تاج الامبراطورية !

❋ ❋ ❋

ظلت « الامبراطورة » تحن الى حياة (الراقصة) وظلت تيودورا زوجة يستينيانوس الامبراطور تذكر بالحسرة والألم تلك الحرية التى كانت تتمتع بها تيودورا الغانية ، فقامت فى نفسها ، وهى جالسة على العرش ، رغبة شديدة فى العودة الى سيرتها الاولى : الى التهتك : الى اشباع ميولها ، والتمرغ فى احضان الحب المحرم كسابق عهدها به .

فأرسلت فى طلب عشاقها الأقدمين : الواحد بعد الآخر ، وأدخلتهم

خلسة الى قصرها ، فتحول مخدع الامبراطورة الى مفسقة يلتقى فيها طلاب الهوى ، وعشاق الجمال ، ورواد الملاذ !

وكان « ميخائيل » أحد أولئك المغرمين المعجبين بتيودورا ، ومن أسعدهم حظا لديها ، وكان أخوه الصغير أيضا من المترددين على القصر . لكن الامبراطورة كانت تحذر كلا من الاثنين ان يذكر للآخر شيئا عن علاقاته بها .

وحدث ذات يوم ان علم الأخ الصغير أن أخاه الكبير يتمتع لدى الامبراطورة المتهتكة بحظوة أوسع من حظوته . فجاءها مرغيا مزبدا . وهددها بافشاء سرها اذا لم تطرد أخاه وتقفل فى وجهه أبوابها .

فخشيت تيودورا سوء العاقبة . على اثر ذلك الحادث ، وراحت تغرى الأخ وتحرضه على أخيه ، لكى ينقذها منه ويحول دون وقوع الفضيحة فى البلاط .

***

وبعد يومين كانت تيودورا جالسة مع فهدها الأليف ، أمام تلك النافذة التى كانت تحب الجلوس أمامها . واذا بالوصيفة ، المطلعة على جميع أسرارها ، تدخل عليها وتهمس فى أذنها مرة أخرى ذلك الاسم : « ميخائيل ! » .

ضحكت الامبراطورة فى هذه المرة . وقالت :

— الكبير ؟ اننى فى انتظاره ، ليدخل !

فدخل العاشق ، كالح الوجه ، مقطب الجبين ، وقال :

— قضي الأمر ، والاسماك تلتهم جثته منذ الأمس !

فنهضت تيودورا من مكانها . واقتربت من العاشق القاتل ، وامسكت بيديه ، وحدقت فيه البحر . وقالت :

— أقتلته ؟ حقا ؟

— نعم ، والقيت جثته فى البحر !

فطوقت تيودورا عنقه بذراعيها وبينما الاثنان مستلقيان على الوسائد الحريرية أمام النافذة المطلة على البحر ، يتداعبان ويتحادثان ، حانت من المرأة التفاتة نحو يد حبيبها ، تخيل اليها أن لطخة حمراء لا تزال باقية على كفه !

فنظرت الى اليد الأخرى ، والى وجهه ، والى عنقه ، فخيل اليها ايضا ان بقعا حمراء تلطخ اليد والوجه والعنق . وان الدم الذى سفكه هذا القاتل — دم أخيه البرىء — لا تزال آثاره باقية . مطبوعة ، تشهد على المجرم الأثيم وتتهم من حرضه على القتل !

كانت تيودورا قد ارتكبت قبل ذلك اليوم جرائم كثيرة . وانغمست فى الدماء والملاذ المنكرة ، لكنها لم تشعر مرة واحدة بأن هناك ضميرا يؤنب المذنب على ذنبه !

أما اليوم فان ضميرها قــد صحا من سباته . وهى تشعر وتحس بوخزه المؤلم !

فاستعرضت أمامها ذلك الماضي المثقل بالآثام والمنكرات والخيانات . وهالها ما اقدمت عليه فى حياتها من اعمال مخزية معيبة ، وسمعت صوتا داخليا يهيب بها :

— كفى شرورا أيتها المرأة الدموية الفاجرة ! لقد آن الأوان للتوبة تكفرى عن ذنوبك وآثامك ان الله يغفر للتائبين !

***

ظل العمال يشتغلون ستة شهور كاملة فى بناء تلك الدار الواسعة الارجاء ، القائمة على ضفاف البوسفور ، التى اعدتها الامبراطورة تيودورا ملجأ لخمسمائة من النســاء الساقطات ، اللواتى حملتهن على التوبة والندم ، فعدلن عن سلوكهن الشائن ، ومفاسدهن السابقة . وأقمن فى تلك الدار ، فى رعاية الامبراطورة والامبراطور .

نبذت تيودورا ماضيها ، بعد ذلك الحادث المشئوم ، الذى راح فيه اخ شهيد الحب الأثيم ، قتيلا بيد أخيه . ولم يكفها ذلك بل جعلت تدعو البغيات والممثلات والراقصات الى نهج منهجها ، وسلوك السبيل السوى الذى سلكته .

وكان « ميخائيل » القاتل ساعدها الأيمن ورفيقها فى ذلك الجهاد المشكور ، بعد أن تاب مثلها . وعزم من جهته على أن يكفر عن سيئاته الماضية .

وبعد أن شيدت تيودورا تلك الدار الفخمة ، على ضفاف البوسفور وجمعت فيها خمسمائة من الممثلات والراقصات والنســوة المتهتكات ،

اقامت صديقها «ميخائيل» مراقبا على الدار - من قبلها ومنقبل الامبراطور يستينياتوس زوجها .

وذهبت الى ابعد من ذلك ، فجعلت تبحث لأولئك النسوة التائبات عن ازواج بين خدم القصر وجنود الحرس ، وترغم كل من اراد الزواج من اتباعها على اختيار رفيقة حياته من ساكنات « دار التوبة » كما كانت تسميها !

وقد جلس الامبراطور يستينيانوس على عرش بيزنطة ثمانية وثلاثين عاما ، من سنة ٥٢٧ الى سنة ٥٦٥ للميلاد . وكان في خلالها من الملوك المنصفين العادلين .

لكنه ظل جاهلا ذلك الحادث الذى حمل زوجته على تشييد تلك الدار — دار التوبة — كما ظل جاهلا لكثير من الأسرار التى تضمها جدران قصره .

وبعد موت تيودورا ، بكاها « ميخائيل » صديقها ورفيقها فى جميع اطوار حياتها ، وأفشي ذلك السر الرهيب وقص على الناس قصته ومقتل أخيه وتوبة الامبراطورة !



زجر الشـــاب الامبراطورة واعرض عنهــا ، فادعت أن الشيطان قد حل فيه ، وصدقها الناس !



دير القديسة كاترينا ـ أو طور سيناء ـ
لوحة للرسام شريكاسوفسكي

مات يستينيانوس الأول ، أمبراطور الشرق ، فى سنة ٥٦٥ ، تاركا ذكرى طيبة وآثارا باقية ، بعد أن حكم الامبراطورية البيزنطية ثمانيا وثلاثين سنة ، وشاركته فى الحكم زوجته تيودورا ، التى اقترن اسمها باسمه ، ودون بجانبه فى صفحات التاريخ . فقد قامت تلك المرأة النابغة بدور كبير فى مبادىء السياسة والحرب والحب . وماتت قبل زوجها بدون أن تترك وريثا للعرش .

وتبنى يستينيانوس الأول ابن أخيه يستينوس وجعله ولى عهده . كما كان عمه ، الامبراطور يستينوس الأول ، قد اختاره من قبل وليا لعهده ووارثا لعرشه .

وكان يستينوس الثانى ، يوم خلف عمه يستينيانوس ، قد تدرب على ادارة شئون الدولة ، وأعد عدته للاضطلاع بمسئولياته وقد قابل الشعب ارتقاءه العرش بالرضا والارتياح ، وخيل الى الناس أن عهده سيكون امتدادا لعهد سلفه العظيم .

وكانت زوجته « صوفيا » ذات سلطان عليه ، كما كانت من قبل الامبراطورة تيودورا ذات سلطان على زوجها يستينيانوس . كأن الاقدار أبت الا أن تكون الامبراطورية الرومية — أو الرومانية الشرقية — فى تلك الحقبة من تاريخها ، خاضعة لارادة النساء دون ارادة الرجال ، أو لارادة الرجال والنساء فى آن واحد .

كانت صوفيا من النساء اللواتى أولعن بالحب العنيف والغرام الفاسد . فبحثت عن عشاق بين الاشراف والصعاليك ، والكهول والشبان فأعادت الى بيزنطة ، من هذه الناحية ، عهد تيودورا ، ابنة مروض الوحوش التى رفعها جمالها الى سرير الملك .

أحبت صوفيا من الرجال أشكالا وألوانا ، واختارت عشاقا من جميع الاجناس والمذاهب .

ولم يقف فى وجه الامبراطورة المتعطشة الى الغرام ، الباحثة فى كل مكان عن الرجال ، غير رجل واحد ، أو بالأخرى فتى واحد ، زجر

المراة ولم يؤثر فيه اغواؤها . وبلغ به الامر الى ضربها بعصاه ضربة مؤلمة على كتفها ، كتمت الامبراطورة خبرها . لا خوفا من الشاب الذى لم يكن له حول ولا طول ، وانما للخزى من العار والفضيحة !

ذلك الفتى هو تيوفيلوس الرومى ، الجميـــــــل الطلعة ، المفتول الساعدين ، الساحر العينين !

جاء به الامبراطور يستينوس من قرية نائية ، حيث كان الشـــاب يرعى الماشية ويروض الخيول ويصارع الثيران . وجعله جنديا ثم ضابطا فى حرسه ، غير أن الشاب ظل محتفظا بخلقه الريفى . وطبعه الشرس ، وظل عائشا بين الناس كما كان عائشا من قبل بين الحيوانات .

رأته الامبراطورة وهى تطوف فى ثكنات الجند . فى احدى ليالى الشتاء الباردة . وكان الشاب عارى الذراعين والصدر والظهر ، يداعب فرسا جامحة ويحاول اخضاعها . والعرق يتصبب من جبينه .

راق الامبراطورة منظر ذلك الفتى القوى الشجاع ، الذى لا يؤثر فيه البرد ، والذى لا يحتاج لاتقائه الى الاصواف والفراء !

وحاولت المراة أن تغرى الرجل وتستهويه . لـــكن تيوفيلوس لم يؤخذ بحبائلها ، ولم يدع لسهام عينيها منفذا الى صدره ، فحنقت عليه الامبراطورة العاشقة العاتية . واضمرت له الشر وبيتت له الانتقام !

***

ساعدت الاقدار يستينوس الثانى فى بادىء الأمر ، واعانته الظروف والاحوال ، فانتصر على اعدائه الكثيرين ، ورد القبائل عن تخوم مملكته الشاسعة ، واعاد الى شعبه الطمأنينة . ولكن المجهـــود العظيم الذى بذله ذلك الامبراطور فى صيانة ملكه وتنظيم شئونه ، أدى به الى خطر لم يكن فى الحسبان .

اقدم الامبراطور فى سنة ٥٧٣ على اعمال تنم عن اضطراب عقلى ظاهر . فعهدت الامبراطورة صوفيا الى أشهر اطباء المملكة فى فحصه ، واتضح لهم ان يستينوس مشرف على فقدان العقل !

وفى سنة ٥٧٤ ثبت لدى الامبراطورة ولدى الاطباء وعظماء المملكة ، ان المسكين مصاب بالجنون ، وأنه لابد من اختيار اشــــخاص يتولون الحكم بجانبه .

وفى انتظار ذلك ، جعلت الامبراطورة تصدر الاوامر الى اتباعها

باسم زوجها - بعد موافقة الامبراطور المعتوه عليهـــا . وكان أول أمر اصدرته صوفيا - موقعا عليه باسمها ، ممهورا بختم الامبراطور يستينوس امرا بنفي تيوفيلوس - الضابط في الحرس ، الى دير جبل سيناء - بحجة ان الرجل به مس من الجنون وأن شـــيطانا رجيما قـــد اتخذ من جسمه مقرا له !

تهمة باطلة كانت عقلية القوم في ذلك الوقت تميل الى تصديقها . وقد ساعدت طبـــــاع الرجل الشرسة على اثبات التهمة واصـــــدار الأمر بالنفي .

وأرسل تيوفيلوس الرومي ، الـــــذي احتقر الامبراطورة وزجرها ورفض ما عرضته عليه من غرام اثيم ، الى دير طور سيناء الذي يحمـــل اسم القديسة كاترينا للاقامة فيه بين الرهبان والنســـاء - الى أن يطرد الشيطان منه وتغادره الروح الشريرة !

عبثا حاول الرجل أن يدافع عن نفسه ، وان يثبت ان ليس للشيطان علاقة به . واخيرا ثار ثائره ، فاهوى بعصاه مرة أخرى على الامبراطورة صوفيا ، امام وزير الامبراطورة « تيبيروس » فاتخذ عمـــله هذا برهانا جديدا على حلول الشيطان فيه .

ولكن تيوفيلوس لم يلبث أن أصيب بالجنون . على اثر وصوله الى الدير وحبسه فيه ، فخرج ذات يوم من الحجرة التى كان مسجونا فيها . بعد أن كسر قيوده وتخلص منها ، وصعد الى أعلى الاســـوار والقى بنفسه الى الخارج فسقط على الارض جثة مهشمة هامدة !

ولم يدفن تيوفيلوس أو « الشيطان» كما كان يسميه سكان الدير فى المقبرة التى يرقد فيها الرهبان والنساء رقادهم الأخير ، بل نقلت جثته الى سفح الجبل ، ودفنت فى حفرة بين الصخور ، حيث تبنى النســور وكناتها ، ولم يقبل أحد من الرهبان ان يتلو على قبر « الشيطان » صلاة الاموات ، لأن الله لا يقبل نفس من اتخذه ابليس مقرا له !

ولو حفرت بين الصخور ، فى الناحية الشرقية . لعثرت على عظام « الشيطان » تيوفيلوس ، الذى راح ضحية الظلم والاستبداد . والذى اعتقد الناس أن روحه قـــد ولت الى الجحيم مقر الشياطين . على حين اعتقدوا ايضا ان روح الامبراطورة صوفيا الفاجرة . تقيم فى جنة الخلد بين الملائكة والأبرار والقديسين !

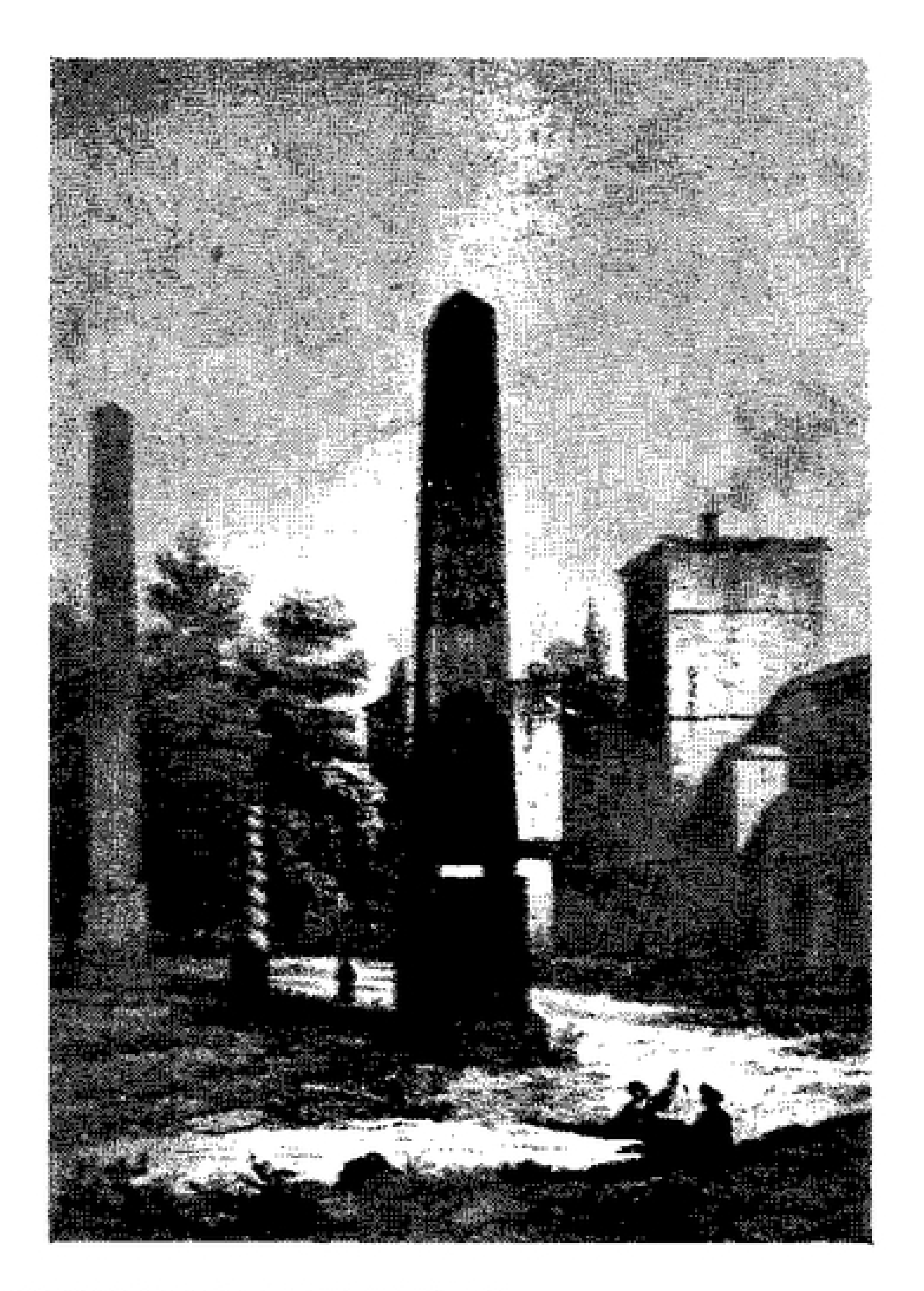
عاش يستينوس الثانى مجنـــونا اربعة اعوام اخرى ، ومات فى سنة ٥٧٨ ...

اما عمه يستنيانوس الأول زوج تيودورا ، فهو الذى شمل بعطفه وحمايته النساك المترهبين فى جبل سيناء ، فشيد لهم على نفقته كنيســـة احاطها بسور مرتفع ، فكانت نواة الدير الذى بناه الرهبان والجنود فى ذلك الموضع فيما بعد ، وجعلوه مقرا لهم .

وهو الذى ارسل اليه تيوفيلوس بأمر من الامبراطورة صوفيا .



هل انتقمت السـمـاء من الامبراطور لانه خالف القوانين والشرائع والعقـائد ؟ ...



رسم قديم لساحة « آت ميدان » بالآستانة
وفيه آثار باقية من «الملعب» البيزنطي حيث
كانت تجرى المصارعات وألعاب الفروسية

ولدتا فى وقت واحد : الاولى لأب وأم روميين . والاخـــــرى لأب مصرى وأم سورية . وكأن الاقــدار شاءت بذلك ان تربط حياة « مارتينا » بحياة ماريا منذ اليوم الاول الذى رأتا فيه النور .

كانت أم مارتينيا تدعى أيضا « ماريا » وهى ابنة القائد البيزنطى البارع هراكليوس ، حاكم الاقاليم الافريقية باسم الامبراطورية البيزنطية وصاحب المشروعات العمرانية الموفقة فى مدينة قرطاجة مقره الرسمى .

وكان لماريا ابنتــه صديقة سورية هى زوجة التـــــاجر المصرى « باخوم » اشهر موردى المواد الغـــذائية للجيوش الرومية فى مصر وسورية وافريقيا . وتلك الصداقة التى كانت تجمع بين المرأتين الشابتين ، جعلت السورية زوجة المصرى تسمى ابنتهـــا « ماريا » باسم صديقتها ابنة الحاكم الرومى .

واسم « ماريا » من الاسماء المحبوبة من المصريين والروم معا . فى عصر كانت فيه مصر جزءا من الامبراطورية الرومية الشرقية ، ومعقلا من معاقل المسيحية فى العالم .

ولم تكن ماريا أم مارتينا قادرة على تغذية طفلتها الرضيعة بلبنها الشحيح ، فعهدت بذلك الى صديقتها ، وهكذا رضعت الطفلتان مارتينا الرومية وماريا المصرية من ثدى واحد ، فغذتهما الأم السورية بلبنهـــا المتدفق غزيرا من صدر عامر بالصحة والعافية !

وكان لماريا أم مارتينا أخ مغامر يدعى أيضا « هراكليوس » مثل أبيه . شب ونشأ قويا مقداما متطلعا الى المجد والعلا . وســـــاعدته الظروف الصعبة ، والاوقات الحرجة والازمات المتوالية التى مرت بها الامبراطورية فى ذلك العهد ، على ان يشق لنفسه طريقا الى الاهداف البعيدة ، التى كان يحلم بالوصول اليها .

كان اعداء الامبراطورية والطامعون فيها يواصلون مهاجمتهـــا من الشرق ومن الغرب ومن الشمال . الفرس فى آسيا . والبرابرة فى جبال البلقان وما وراءها من سهول . وكان الخطر الداهم يشتد ويتفاقم

يوما بعد يوم واعين الناس تتطلع فى كل ناحية وصوب ، باحثة عن المنقذ الذى تبعثه العنـــاية الالهية لكل وطن مهـــــدد بالهلاك ، اذا كان الله راضيا عنه !

وطلع المنقذ على الشعب فى الوقت المناسب وقبــــل أن تفوت الفرصة .

ذلك المنقذ هو هراكليوس . القائد المغوار ، ابن القائد المغوار ، الوطنى المخلص ابن الوطنى المخلص . تولى الزحف بجيشه على الحدود المهددة ، وكان النصر حليفه فى كل معركة خاض غمارها ، وفى كل حملة شنها على أعداء بلاده ، فعرف الشعب قدره ، وكافأه بأن رفعه الى سدة العرش فى بيزنطة ، بعد أن تتابعت المآسي فى داخــل الاسرة المالكة ، فأنشأ هراكليوس الاول أسرة جديدة كان هو رأسها .

والاقدار التى غمرته بعطفها أرادت أيضا أن يكون ملكه طويلا ، مفعما بالحوادث الجسام ، مملوءا بالمفاخر ، وان يمتزج ذلك كله فى النهاية بسلسلة من المآسي الدامية والفواجع الرهيبة .

***

فى سنة ٦١٣ للميلاد . ماتت « أودوكيا » زوجة الامبراطور ، وكان يحبها حبا جما ، ويعتقد أنها جلبت له الحظ والخير العميم . فحزن عليها حزنا شديدا ، وحبس نفسه فى قصره بضعة أسابيع ، ورفض أن يستقبل أصدقاءه والمقربين اليه ، وظن الناس ان العاهل القوى الجبار أوشك أن يفقد عقله — ان لم يكن قد أصيب بالجنون فعلا يوم ماتت الامبراطورة .

لكن مارتينا ، ابنة أخته ماريا ، تمكنت من اقتحام الحصار الــذى فرضه الامبراطور على نفســه ، ودخلت عليه فى عزلته ، ووقفت جهدها على مواساته وتعزيته واعادة الثقة الى نفسه .

واقنعته بأن يسمح أيضا لصديقتها ماريا بأن تعاونها فى العناية به . وهكذا عاشت الفتاتان اليانعتان مع الامبراطور فى عزلة قصره الواسع ، طول المدة التى حبس نفسه خلالها بعيدا عن الناس .

كانت مارتينا وصديقتها فى الثالثة والعشرين من العمر ، وفى صدر كل من الفتاتين قلب مفعم بالعواطف ، متعطش الى مناجاة قلب متعطش مثله الى كل ما تختلج به قلوب الفتيات فى تلك السن الحلوة الخطرة !

أما الامبراطور هراكليوس ، الذى ترمل بوفاة زوجته ، فكان فى

الثامنة والثلاثين ـ ولم يكن قلبه قد فرغ بعد مما انطوى عليه من مشاعر .

فلا غرابة في أن يحدث تجاوب بين قلبين ـ في مثل هذه الظروف : وهذا ما حدث بقلبى الامبراطور الأرمل وابنة أخته الصبية مارتينا .

***

في خلوة بينها وبين صديقتها ، ورفيقتها منذ عهـــد الطفولة ؛ والاخت التى رضعت معها من ثدى واحد ـ قالت مارتينا لماريا :

ـ أيتها الأخت المحبوبة ، أظن أننا في الطريق الى تحقيق مرحلة أخرى من مراحل الحـلم الطويل الـــذى رويته لى ونحن على عتبة الشباب .

وانتفضت ماريا لهذا الذى قالته لها مارتينا ـ وسألت بلهفة :

ـ أتعتقدين أن الامبراطور ، وقد خـــلا بجانبه مكان الامبراطورة ؛ سيأخذ بيدك ويجلسك في المكان الخالى ؟

وردت مارتينا بلا تردد :

ـ نعم ، هذا ما أعتقد !

وهذا فعلا ما كانت تعتقده الفتاة الجميلةالساحرة ـ وهو في نظرها أمر طبيعى ، يجىء متمما لغيره من الحوادث التى وقعت من قبل ـ والتى تحققت بها مراحل الحلم الذى أشارت اليه الفتاة .

الحلم الذى رأته ماريا وهى في الثالثة عشرة من العمر ـ ولم يكن بعد هراكليوس قد اعتلى العرش في بيزنطة .

رأت الصبية المصرية نفسها تسير في الطريق جنبا الى جنب مع صديقتها وابنة سميتهـــا مارتينا ، وقد طوقت كل منهمـــا خصر الأخرى بذراعيها ، واتجهت الفتاتان الى منصة بعيدة يعلوها مقعد ارجوانى عليه تاج مذهب .

وسمعت الفتاة صوتا يهمس في أذنها :

« حياتك وحياة أختك في الرضاعة حياة واحدة .

« تموت أمك يوم تموت أمها .

« يموت أبوك يوم يموت أبوها .

« تذهبين الى بيزنطة يوم تذهب هى اليها .

« تعيشين في ظل عرش تعيش هي في ظله .

« تمرحين في قصر تمرح هي فيه .

« تجلسين على سلم العرش يوم تعتليه هي .

« ستكون هي زوجة الامبراطور ، وتكونين انت زوجة لقائد من قواده .

« تسقطين يوم تسقط هي .

« تموتين قبلها بخمسة أيام ! »

وقطعت الفتاتان مراحل الحيـــاة من سن الثالثة عشرة الى سن الثالثة والعشرين .

وتحققت من الحلم الغريب حلقاته الاولى .

ذهبت الصديقتان معا الى بيزنطة . وملت ابواهما كمـــا جاء في الحلم . وارتقى هراكليوس ، خال مارتينـــــا ، عرش القيـــاصرة في القسطنطينية ، فعاشت الفتاة في ظل العرش ، وعاشت معها في ظله اختها في الرضـــاعة . ومرحت الفتاتان في القصر المترامي الاطراف ، والذي هو في الواقع مجموعة قصور داخل اســـوار شاهقة ، ما راق لهما أن يمرحا .

عرفتا معا ، وفي وقت واحد ، ما ينفع وما يضر ، ما يحزن وما يسر!

كان هراكليوس يرعى بعنايته ابنة اخته ، فتشـــمل العناية الملكية أيضا صديقتها ورفيقتها ماريا .

وكانت الفتاتان ، من وقتالي آخر ، تذكران الحلم الرائعوتتحدثان عنه وتضحكان لغرابة ما جاء فيه .

ولكنهما لم تسدلا عليه ستار النسيان ، بل ظلت كل منهمـــا تدعه يداعب مخيلتها في الليالي المتتابعة ، وتمـــلل النفس بأن ترى تحقيق ما قاله الصوت الهامس في اذن ماريا بتلك الاحداث الحلوة المظيمة .

وكانت ماريا اكثر الفتاتين تساؤلا بينها وبين نفسها ، عن امكان تحقيق الحلم برمته ، وكانت ايضا ابعد من رفيقتها أملا بأن تتحول مراحل الحلم كلها الى وقائع ملموسة .

الى أن طلع فجر ذلك اليوم الذي قالت لها فيه أختها في الرضاعة:

ـ ايتها الأخت المحبوبة . اظن اننا فى الطريق الى تحقيق مرحلة اخرى من مراحل الحلم الطويل الذى رويته لى ونحن على عتبة الشباب !

وكشفت مارتينا لماريا عن مكنون صدرها ، وعما دار بينهـــا وبين خالها الامبراطور من حديث . فى الليلة السابقة لذلك اليوم النير .

كاشف الخال ابنة اخته بغرامه .

قال لها : انه يحبها حب الرجل للمرأة . لاحب المربى لربيبته ، وانه يفضي اليها بعاطفته هذه بصراحة ، وبدون مواربة . ويعرض عليها ان تحل بجانبه ، فى حياته ، وعلى عرش الامبراطورية . محـــل زوجته الراحلة أودوكيا .

وقالت مارتينا أيضا لماريا انها ردت على خالها بأن عاطفته تجد صدى فى صدرها ، وأنها تقابل حبه بمثله ، ولا تمانع فى أن تشاركه فى حياته كزوج وامبراطور .

وطوقت ماريا عنق صديقتها بذراعيها وانهالت عليهـــا بالقبلات ، ودموع الفرح تنهمر من مقلتيها .

لكن مارتينا استطردت تقول :

ـ وفى اللحظات التى كنت اتبادل ذلك الحديث الرطب المنعش مع خالى الامبراطور ، لم يغرب عن بالى ، أيتها الأخت الحبيبة . ان الحلم الذى رأيته يقضي بأن تتزوجى أنت قائدا من قواد الجيش . يوم اصبح انا زوجة لقيصر !

تسألت ماريا ضاحكة وقد احمرت وجنتاها :

ـ وهل وجدت لى ، أو وجد لى الامبراطور زوجا بين قواد جيشه؟

وأجابت مارتينا على الفور :

ـ نعم ، القائد نيقولا ليزياس ، الشاب الـذى ينتظره فى سلك الجندية مستقبل عظيم !

❋ ❋ ❋

شاع خبر عزم الامبراطور هراكليوس على اتخاذ ابنة أخته مارتينا زوجة له ، فقامت قيامة رجال الدين ، وعلى راسهم البطريرك سرجيوس المتمسك بالتقاليد والساهر على تطبيق الشريعة المسيحية الارثوذكسية ، فى مقر الكنيسة الشرقية ، بيزنطة عاصمة الامبراطورية الرومية

ان زواج الرجل بابنة اخيه أو بابنة اخته ، وزواج المرأة بابن اخيهـا او بابن أختها ، أمر تحرمه القوانين الكنسية ، ويخالف التقـاليد المرعية ، والعادات المتوارثة عند المسيحيين منذ ان بشر الرســول بولس بالدين الجديد ، فى البلاد اليونانية .

ولا يسع البطريرك ، ومعه رجال الدين كلهم ، كبارهم وصغارهم ، الا أن يباركوا فى عقد هذا الزواج الذى يفكر فيه الامبراطور .

ولكن هراكليوس صم أذنيه عن سماع النصـائح وضرب صفحا عن المعارضة .

فصاح سرجيوس ، لما اتضـح له أن الجالس على العرش مصمم على أن يتحدى الكنيسة :

— اذن ، فلتفعل السماء ما يشاء لها معك ايهـا الخارج على شرائعها . وسوف يحل بك الانتقام ، وهو رهيب !

وتم الزواج . واصبحت مارتينا امبراطورة تجلس مع هراكليـوس على عرش بيزنطة . واصبحت أختهـا فى الرضاعة ، ماريا المصرية ، زوجة للقائد ليزياس ، اقرب الناس الى صاحب العرش .

وهدأت الخواطر مع مرور الوقت . ونسي البطريرك أو تنـاسي ماتكبن به من انتقام سماوى ، وظن هراكليوس وزوجته أن زواجهما لقى الغفران الربانى والبشرى فى آن واحد .

***

ولكن الحوادث تتابعت فى مجرى غير الذى كان الامبراطور يأمله ويتمناه .

حلت الكوارث بالامبراطورية من اطرافهـا الشرقية والغربية ، والشمالية والجنوبية . وتعاونت مارتينا مع زوجها المتوج فى معـالجة الاضطرابات ودرء الاخطار وانقاذ الملك الواسع من الانهيار .

وكانت هى أشجع منه وابعد تحملا للمتاعب ، وبلغ بهـا الاقدام احيانا حد التهور ، فكانت تتولى تصريف شئون الدولة وحدها ، على حين أن الامبراطور قابع فى حجرته ، يستسلم لليأس ، ويفكر فى النزول عن العرش والرحيل الى قرطاجة ، فى افريقية ، حيث نشأت أسرته وأحاطها الناس بالمحبة والتقدير .

ذهبت المرأة الشجاعة ، مارتينا الامبراطورة ، الى البطـــــــريرك العنيد ، واقنعته بأن يتصافى مع هراكليوس فى سبيل الوطن ، ولانقاذ الدولة بانقاذ قيصر من اليأس . وعمل سرجيوس بنصيحتها ، وتصـــافح الخصمان ، وعقدا العزم على بذل المستطاع كى لا تصاب الامبراطورية بالانهيار .

غير أن الصلح بين الرجلين جاء بعد فوات الوقت . ولما انتهى أجل هراكليوس ، وفاضت روحه بين ذراعى زوجته ، فى سنة ٦٤١ ، وهو فى السادسة والستين من العمر ، كانت الشعوب المجاورة تدق أبواب الامبراطورية من جميع الجهات ، والبوادر تنذر بويلات قريبة .

طلب الامبراطور من عظماء المملكة أن يتركوا زوجته من بعده تتولى الشئون العـــامة بالاشتراك مع ولديه : قسطنطين ابن الزوجة الاولى أودوكيا ، وهراكليوس ابن الزوجة الثانية مارتينا .

ونفذت ارادة هراكليوس الاخيرة . .

لكن قسطنطين مات بعد شهور من وفاة أبيه ، وتهامس النـاس بأن للامبراطورة يدا فى وفاته المبكرة .

وانفردت مارتينا فى الحكم ، ولكن الاضطرابات عمت انحــــاء الامبراطورية ، وما مرت سنة واحدة على وفاة هراكليوس ، حتى كان قواد الجيش ، وبينهم ليزياس زوج ماريا ، قد تآمروا على الامبراطورة الجريئة وأرغموها على النزول عن العرش ، وحكموا عليها بالنفى الى جزيرة نائية .

سقطت مارتينا من عليائها فى سنة ٦٤٢ ، وسقطت معها أختها فى الرضاعة ، ماريا ، التى طردها زوجها القائد المتآمر ليزياس ، وأمر بأن ترافق مولاتها الى المنفى .

وقبل أن ترسل مارتينا الى السفينة التى حملتهـــا الى منفاها فى عرض البحر ، نفذ فيها الحكم الاخير الذى أصدره أبناء زوجها وأعوانهم المتآمرون ، وهو أن يقطع لسانها كى لا تنبعث من فمها بعد ذلك اليوم الرهيب كلمة واحدة فى حق الذين أساءوا اليها وطردوها من عرشـــــها !

***

عاشت مارتينا ابنة ماريا وزوجة هراكليوس احدى عشرة ســنة بعد وفاة زوجها ، حزينة كئيبة مقطوعة اللســان !

وعاشت معها فى المنفى ــ راضية بمصيرها ــ أختها فى الرضاعة ، ماريا ابنة التاجر المصرى باخوم من زوجته السورية .

وفي صباح يوم مكفهر قاتم ، صحت الامبراطورة المخلوعة من نومها وقد انتابها عارض جنون فجائى .

ملأت غرفتها صياحا ، فأسرعت رفيقتها ماريا اليها تستطلع الخبر .

فوثبت مارتينا على أختها فى الرضاعة ، وقبضت على عنقها بأصابع أشد صلابة من قضبان الحديد ، ولم تتركها الا بعد أن اصبحت المسكينة جثة لا حياة فيها .

قتلت مارتينا المرأة التى بقيت وحدها محافظة على صداقتها ، والتى ظلت وفية لها حتى النفس الاخير . !

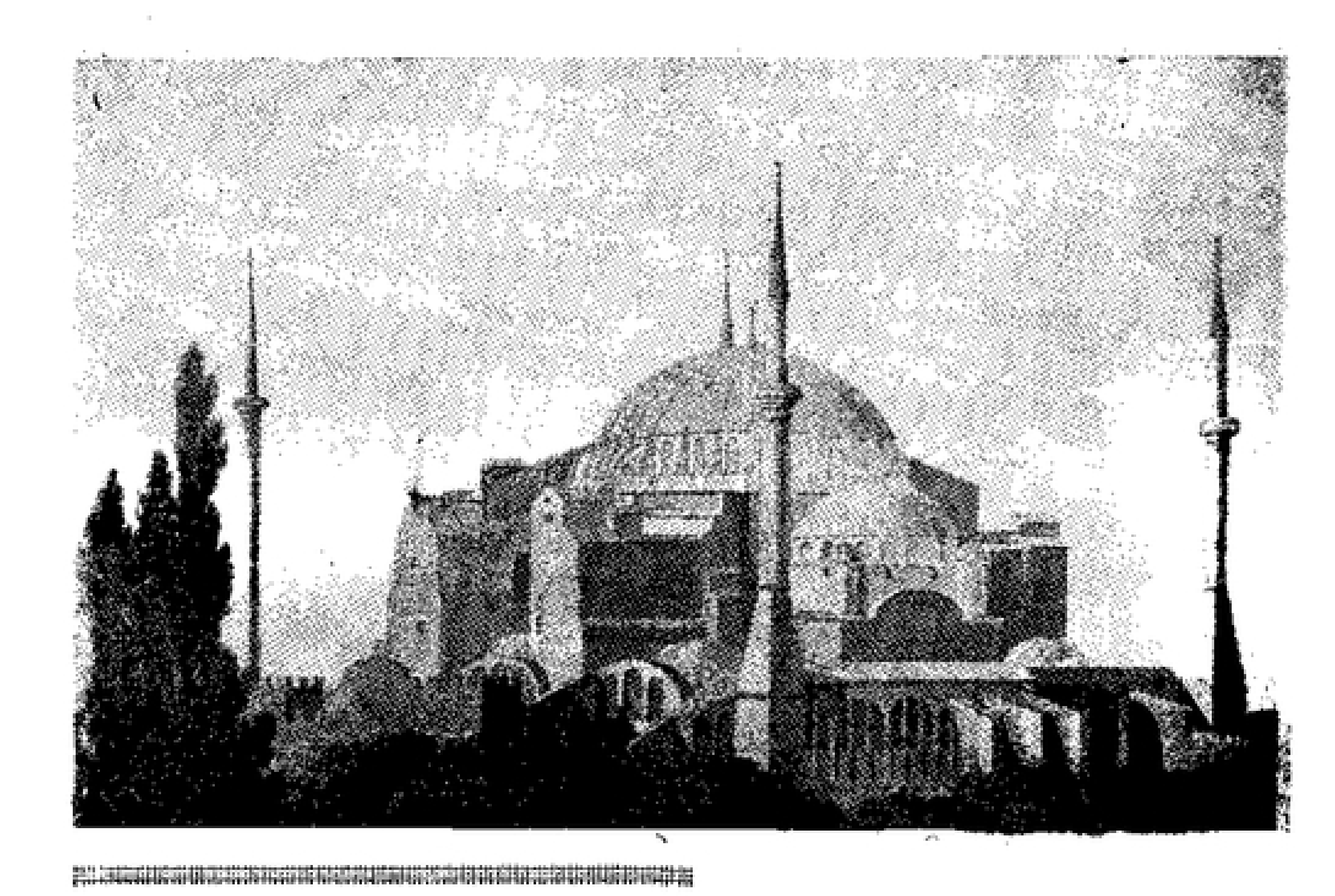
وبعد خمسة أيام ــ تماما كما جاء فى الحلم الغريب ــ ماتت مارتينا مجنونة فى جزيرتها النائية ! .

وكانت ، مثل صديقتها ، فى الثانية والستين من العمر .

وقال النـــــاس في القسطنطينية ، المسماة بيزنطة ، عاصـــمة الامبراطورية الرومية : ان الســـــماء انتقمت من هراكليوس ومارتينا ، بســـبب الزواج المخالف للشرائع الدينية ، الذى أقدما عليه بالرغم من المعارضة والتحذير .



**السلطة تعمى البصر والبصيرة أحيانا ، فتحول الانسان الى وحش ، أو الى شيطان !
والشعوب تنتقم من الوحوش المتوجين ، والشياطين الجالسين على عروش !**



« جامع آيا صـوفيا »

« آيا صوفيا » اشهر كنائس الروم ، حولها العثمانيون الى جامع وحفظوا لها اسمها :

كان العـــــرب يدقون أبواب الامبراطورية الرومانية الشرقية فى عقـــر دارها ، بعد أن استتب لهم الامر فى الاقاليم التى انتزعوها من أطرافها . وبعد أن أصبح بر مصر وبر الشـــام جزءا من الدولة الناشئة .

ضربوا الحصار على القسـطنطينية . أى بيزنطة . عاصـــمة الامبراطورية ، وأوشكوا أن يستولوا عليها فى عهد معاوية بن أبى سفيان .

عجلة الحظ تدور ، وميزان القوى يضطرب . وفى الافق نجم يصعد ونجوم تهوى .

تمكن قسطنطين الرابع من انقاذ عاصمته . والاحتفاظ بعرشه . فالى متى يتمكن القياصرة فى المستقبل من صيانة العرش والعاصمة ؟.

هذا هو السؤال الذى كان يدور ، على الالسنة يوم تولى الملك . فى بيزنطة ، فتى فى السادسة عشرة من العمر : فقد خلف يستنيانوس الثانى أباه قسطنطين الرابع فى عام ٦٨٥ للميلاد : الموافق لسنة ٦٦ للهجرة ، وكان عبد الملك بن مروان يتولى الملك والخلافة فى دمشـــق عاصمة الامويين .

كان الامويون فى ذلك الوقت يهادنون الروم ويرتبطون بالامبراطورية بمعاهدة تفرض على الفريقين أن يقف كـــل منهما عند حـــده . ولكن الامبراطور الشاب ما كاد يضع التاج على رأسه حتى نقض العهـــد وتجاهل الاتفاق . فزحف العرب من جديد على آسيا الصغرى وأضافوا الى أملاكهم ما انتزعوه من مدنها وسهولها وجبالها .

***

فى تلك الحقبة المضطربة من تاريخ الشرق الادنى . نزحت أسر عدة من اقليم الى اقليم ، ومن مدينة الى أخرى .

وكان الطبيب السورى « بولس السمرى » وأفراد أسرته بين

النازحين من حلب ، فاستقر به المقام فى قرية صغيرة على ضفافه البوسفور ، حيث اقام مع زوجته وابنته وثلاثة شبان كانوا يعاونونه فى تحضير العقاقير من الاعشاب ، وهم ابناء أخيه .

كان ذلك فى عهد قسطنطين الرابع البيزنطى وعهد يزيد بن معاوية الاموى .

ولما تولى الملك الفتى المغرور يستنيانوس كانت شهرة الطبيب السورى قد جاوزت نطاق بلدته . وبلغت القرى والمدن ، وانتشرت في العاصمة الصاخبة ، فتسربت الى القصور الملكية ودور الاثرياء وأكواخ الفقراء .

كان الطبيب يعالج المرضى بمستحضراته النباتية ، ويدعى من بلدته الى مسافات بعيدة فلا يتردد ولا يتأخر فى تلبية الدعوة مهما تكن الظروف والاحوال ، وكان موفقا فى توفير الشفاء لمعظم الذين تولى علاجهم من امراض أو جراح .

وارتبطت أسرة الطبيب السورى بروابط الصداقة والمصاهرة مع أسرة طبيب رومى تقيم فى قلب العاصمة .

وكانت ابنة بولس السمرى . الفتاة الصغيرة الجميلة «فوسينا» تتردد على منازل الاسرة الرومية من وقت الى آخر ، وتقضي فيها أياما أو اسابيع ، وهناك وضعت الاقدار فى طريقها الشاب الذى تبحث عنه كل امرأة فى صباها ، وذلك الشاب واحد من ابناء الاسرة الصديقة النسيبة . « ماركوس » الضابط فى الحرس الامبراطورى .

امام ماركوس مستقبل باسم تدل البوادر على انه سيكون باهرا من جميع الوجوه . فهو — علاوة على ذكائه ، وجماله ، وبراعته فى ضروب الفروسية ، وشجاعته الفائقة — صديق حميم لواحد من أقارب أسرته يدعى « ايلياس » وكان ايلياس من ناحيته صديقا حميما للامبراطور الشاب يستنيانوس ورفيقه وملازمه فى روحاته وغدواته ومغامراته ، ومؤتمن اسراره ، وأحيانا مستشاره فى الشئون الخاصة بسياسة الدولة ومناهج الحكم .

كانت أسرة الطبيب الرومى تفخر بصداقة ايلياس لفتاها ماركوس

وكانت أسرة الطبيب السورى تفخر أيضا بأن تنضح عليها هذه الصداقة فيلحقها منها رشاش !

وكان ايلياس يتردد على الاسرتين ، وتطول او تقصر فترات غيابه على حسب الوقت الذى يتركه فيه الامبراطور حرا ، يتصرف كما يشاء .

كان يستنيانوس الثانى جلفا عنيدا ، سيىء الطبع والخلق ، بذىء اللسان ، طويل اليد ، متكبرا يعتقد ان الله ارسله ليكون سيد البشر على الاطلاق ، دائم التعطش الى سفك الدماء بسبب او بدون سبب ، شرها فى كل شيء ، فى الطعام ، فى الشراب ، فى جمع المال ، فى الحب او فيما يظنه حبا .

ولم يكن ايلياس صديقه مطبوعا على شيء من ذلك كله ، وان كان ملازما لقيصر فى نهاره وليله . وامثال هذه الصداقة المتباينة كثيرة فى احقاب التاريخ ، بين الملوك والامراء والحكام ، من ناحية ، ومن اصطفوهم ليكونوا رفاقهم فى الحياة ، من ناحية أخرى .

اساء يستنيانوس الثانى التصرف فى الداخل وفى الخارج على السواء ، واشتبك فى حروب مع العرب ، ومع البلغاريين ، وتفاقم الخلاف بينه وبين البابا بروما على الشئون الدينية . وبينه وبين الاساقفة فى بيزنطة على الشئون نفسها ، وادى طغيانه الى حدوث مؤامرات متوالية تمكن من قمعها باغراقها فى الدم .

وحدث فى النهاية ان ثار الشعب لما مشى على راسه رجال الدين ورجال الدنيا معا ، فحاول الامبراطور أن يقاوم ، ولكنه غلب على امره ، وطرد عن عرشه ، وحكم عليه المتآمرون بأن يجدع أنفه وينفى الى قرية نائية !

كان ذلك فى سنة ٦٩٥ للميلاد ، اى بعد ارتقاء يستنيانوس عرش الامبراطورية بعشرة اعوام تماما .

وتشتت شمل أصدقائه ومن بينهم ايلياس الوفى الامين ، الذى راى من الحكمة ان يعتزل الحياة العامة . ويبتعد عن المجتمع البيزنطى مده من الزمن . بالرغم من انه لم يكن يعد نفسه مسئولا عن شيء من اعمال الامبراطور .

ومرت خمسة أعوام .

تولى الملك فى ثلاثة اعوام منها القائد « ليونتيوس » ثم أعلن الاسطول العصيان وخلع الامبراطور واحل محله أمير البحر « تيبيروس » فبقى على العرش سنتين ، بل كان للامبراطورية فى هاتين السنتين عرشان وقيصران .

ورای یستنیانوس الفرصة سانحة ، فتمكن من الهرب بمساعدة فريق من أعوانه وعاد الى القسطنطينية على راس قوة وضعها امير البلغاريين حليفه تحت تصرفه ، فقبض على ليونتيوس وتيبيروس ، وأمر بقطع راسيهما ، واسترجع عرشه ، فخضع له الشعب مرة ثانية ، مدفوعا بدافع الخوف لا بدافع المحبة .

كان ذلك فى سنة ٧٠٥ . حيث بدأت المرحلة الثانية لحكم يستنيانوس الثانى ، التى ختمت بقتله سنة ٧١١ للميلاد ، الموافقة لسنة ٩٣ للهجرة .

لم يتعلم الرجل من الحوادث التى وقعت فى المرحلة الاولى ولم يستمد منها الدروس والعبر ، بل نسي الماضي كله ، واندفع فى الطريق الذى سار عليه من قبل ، وراح يتفنن فى أعمال الارهاق والارهاب ، ويبتكر الوانا من التعذيب لا تتفتق عنها غير مخيلات المجانين ، ويغوص فى الدم حتى الركبتين ، وهو يضحك ويغنى !

أصيب يستنيانوس بجنون القتل . ولم يكن القتل يرضيه ويشبع نهمه الا اذا سبقه أو صحبه تعذيب الضحية ، واحب انواع التعذيب الى نفس الامبراطور المشوه ، المجدوع الانف . ان يقطع أنوف الضحايا قبل ارسالها الى الموت او الى المنفى . أو الى السجون !

ريح عاتية من الجنون الاجرامى هبت على العرش البيزنطى ، فطوت فى أجنحتها الجالس على العرش . وحولته الى وحش مفترس ، أو شيطان رجيم !

وكانت نساء المجتمع فى العاصمة الغاصة بالنساء ، المفعمة بالجمال ، الغارقة فى الفساد ، هدفا من أهداف الامبراطور المجنون الهائج . فصار يطاردهن حيث يجدهن ، أو يبعث زبانيته للبحث عنهن وجلبهن الى القصر طائعات أو مرغمات ، حتى عاد الناس يضجون أكثر مما ضجوا من قبل — ويفكرون فى التخلص منه .

وحاول بعض المخلصين لبلادهم من المقربين اليه ان يصلحوا من حاله ، ويعيدوا عقله الى راسه . والعواطف الانسانية الى صدره ، ولكنهم فشلوا فى محاولتهم ..

وكان بينهم ايلياس .

يئس الجميع ما عداه هو ..

تركوا الامبراطور يغرق فى غيه وبهتانه . ولكن ايلياس ظل وحده يناضل فى سبيل الخير ، وما الخير فى نظره غير اصلاح الجالس على العرش .

وحدث فجأة ماحمل ايلياس ، الوفى الصادق . على سلوك مسلك أخر تجاه الرجل الذى كان يريد أن ينقذه بالرغم منه .

وسبب ذلك الانقلاب المفاجىء فى موقف ايلياس : ماقصـــته عليه صديقته وزوجة صديقه ماركوس . فى بيته ، حيث جاءته باكية ترتعش من الحياء ومن الغضب فى آن معا .

كانت الأسرتان قد احتفلتا بزواج ماركوس وفوسينا فى خلال المدة التى قضاها الامبراطور يستنيانوس فى المنفى . وطلب ماركوس اعفاءه من الخدمة فى الحرس الامبراطورى . فأجيب الى طلبه ، ولكنه عاد الى الخدمة بعد عودة الامبراطور من منفاه ، كما ظهر معه صديقه ايلياس .

اثبت الاثنان ، ايلياس وماركوس . بالدليل الملموس ، وفاءهمـــا للامبراطور فى السراء وفى الضراء . فى أيام مجده وفى أيام محنته .

قصت فوسينا على ايلياس ما حدث لها . وما فعله الامبراطـــور معها . فازالت بروايتها الغشاوة عن عينيه ، وقضت ـــ فى صدره ـــ على البقية الباقية من شعور طيب نحو الجالس على العرش .

وقع نظر يستنيانوس مصادفة على فوسينا وهى مع زوجهـــا فى أروقة القصر ، فى احدى الحفلات ، فراقه بهاؤها ، وأثار فى نفســـــه الرغبة فى امتلاك الحسناء . غير عابىء بمركز زوجها بالنسبة اليه .

ارسل ماركوس فى مهمة تستغرق بضعة أسابيع خارج العاصمة ، وأوفد الامبراطور الى الزوجة رسله يدعونها الى موافاته فى القصر .

لم يتسرب الشك الى نفس المرأة الشابة فى بادىء الامر ، وظنت أن ذهابها الى مقر الامبراطور ما هو غير اطاعة لامر صادر اليها ، وقد يكون من وراء ذلك ما يعود على زوجها بالنفع والخير .

ولكن الامبراطور كان يريدها لامر لا يجر على زوجها وعليها غير العار . فانتفضت المرأة الشريفة ، وقاومت المجنون المتوج ، واستخدمت فى المقاومة اظافرها واسنانها ، فأدمت وجهه ومزقت ما تبقى من أنفه المجدوع .

واغمى عليها .

ولما أفاقت ، وجدت نفسها وحيدة فى حجرة واسعة ، وخيل اليها أن الحياة تفارقها مع أنفاسها المتلاحقة .

خرجت من القصر اللعين وعادت الى بيتها . ولكنها لم تقص على أحد ما حدث لها عند الفاسق الفاجر ، وعولت على أن تحفظ السر فلا تبوح به الا للصديق الذى طالما شملها وشمل زوجها بعطفه ، ايلياس الطيب الوفى .

اذن ، هذا الامبراطور ، هذا المجنون ، الذى ظل ايلياس وماركوس على ولائهما لعرشه ، ووفائهما لشخصه ، بالرغم من كل شيء ، هـذا الباغى الاثيم لم يتورع عن الاعتداء على شرف ماركوس ، الضابط فى حرسه ، وايلياس ، صديق ماركوس وزوجته !

قصت فوسينا قصتها على الصديق الذى وضعت ثقتها فيه ، ثم مسحت دموعها ، وانتصبت واقفة ، وقالت بصوت فيه بحة ، وفيه غصة :

— والآن ، أمرى بين يديك ! ان زوجى لا يعلم شيئا . ولا أريد أن يعلم شيئا مما حدث . ولكن هذا الذى يحدث يتطلب الثأر والانتقام ، فالشرف المهتوك كالدم المطلول ! فهل من سبيل يا ايلياس الى غسل الاهانة بغير الدم ؟

فتح الرجل ذراعيه للمرأة الحزينة ، وضمها الى صدره ، وطبع على جبينها قبلة أخوية طاهرة ، ومد يده وقال :

— اقسم بالله يافوسينا ، وبالصداقة التى تربطنى بزوجك ، أن أنتقم له من الامبراطور ، وان اثأر لك فأمحو العار بدم الخائن !

وبدأ ايلياس يؤدى دوره المزدوج ، كان يحرض المتذمرين على الثورة ، ويحرض الامبراطور على الامعان فى طغيانه ، لكى يزداد التذمر بين الناس يوما بعد يوم ! .

وانفجر المرجل مرة أخرى .

ثار أهل القسطنطينية ، وشاركهم الجيش فى الثورة ، وبارك رجال الدين حركة التحرر من النير الثقيل ، وأمر يستنيانوس بأن تفقأ الأعين وتجدع الانوف وتقطع الرقاب ، ولكن هذا كله لم يخمد نيران الثورة بل زادها ضراما .

ونادى الثائرون بأحد زعمائهم ، بردانوس ، امبراطورا محل

يستنيانوس نفر القيصر المجنون ولجأ الى احدى القلاع التى بقيت حاميتها موالية له .

ورافقه فى فراره صفيه ايلياس .

وفى القلعة الرهيبة ، اختلى الرجل بقيصر ؛ وقذف فى وجهه ما اثاره فيه من حقد واشمئزاز سلوك الطاغية مع فوسـينا زوجـة ماركوس .

وقال ايلياس :

ـ ساقتلك بيدى . بهذه اليد التى طالما حملت السلاح دفاعا عنك، سأذبحك لانقذك من العذاب فى حالة وقوعك فى قبضـة اعدائك وما أكثرهم ، ولأنتقم لرجل خنته فى زوجته . وامرأة اهنتها فى شرفها . ولو كنت مثلك قاسي الفؤاد وحشي المشـاعر . لقطعتك اربا اربا والقيت اشلاءك للكلاب تنهشها !

ادرك الامبراطور ان ساعته قد دنت وان لا فائدة من المقاومة . ولا أمل فى الاسترحام . فركع على ركبتيه ، واغمد ايلياس خنجره بين كتفيه .

وكان عمر الامبراطور اثنين وأربعين عاما .



كان الامبراطور القـــاسي
يحرم الذين يغضـــب عليهم
نعمة البصر ، فمات بدوره
محروما منهـــا !



اقسمت الأم الحزينة ان تثار لابنها ، بان تفقا
عيني الامبراطور الذى فقا عيني الطفل العابث!

الاعلام تخفق ، والطبول تقرع ، والموسيقى تعزف . والهتافات المتصاعدة من الحناجر تشق عنان السماء ، والايدى تصفق او تلوح بالمناديل ، ومن شرفات المنازل ونوافذها كانت الزهور من كل لون تنثر هنا وهناك ، والعطور ترش من التمائم على الموكب الملكى الذى يجتاز شوارع المدينة فى طريقه الى الملعب ، حيث تقام حفلة قلما شهدت « القسطنطينية » مثلها ، ابتهاجا بالحادث الذى اراد صاحب العرش ان يدون ذكره فى صفحات التاريخ !

ذلك الحادث هو عقد الصلح بين الامبراطور « قسطنطين » وامه « ايرين » وعودة المياه بينهما الى مجاريها الطبيعية ، وارغام خصوم الامبراطورة الوالدة على قبول هذا الحل والعدول عن الخطة العدائية التى انتهجوها تجاهها منذ تولت الوصاية على ابنها القاصر .

وكان الامبراطور يسير فى مقدمة الموكب على متن جواده ، زيادة فى التكريم لأمه ، التى كانت تتبعه فى مركبة تجرها اربعة خيول مطهمة ، وتحيط بها كوكبة من النبلاء والاشراف ، ثم فرق الجيش واحدة بعد واحدة . وكان اطفال المدينة قد هرعوا الى الشوارع والميادين والازقة ، يشاركون الكبار فى ذلك المهرجان ، فيضحكون ويصفقون ويهتفون ، ويلقون الزهور على الموكب ويركضون فرحا على الجانبين !

وفى ميدان « ايا صوفيا » وقف فريق من الغلمان يقودهم فتى فى حوالى العاشرة من العمر ، وقد حمل كل منهم رزمة من الورود استعدادا لالقائها على الامبراطور بالذات . وما بدا لهم قسطنطين حتى اندفعوا نحوه مسرعين ، وجعلوا يرشقونه بورودهم ويتعمدون اصابته فى راسه ووجهه ، مقهقهين فرحين ، فى جراة ساذجة لاتقدر العواقب !

***

وفجاة ، رفع الامبراطور يده الى عينه وانبعثت من فمه صرخة الم جعلت فرسان الحرس يسرعون اليه مستفسرين عما حدث .

وكان ما حدث ان احد الغلمان اراد ان يتغلب على اقرانه فى القاء

الزهور فربط حصاة في وردة كبيرة ، لتساعدها على اصابة الهدف ، وقذف بها الى جهة الامبراطور فأصابته الحصاة في جبينه وجرحته فوق عينه اليمنى ، ونزف من الجرح قليل من الدم ، لطخ وجه قسطنطين ويده! وتطلع الامبراطور حوله فرأى الاطفال يهربون خائفين ، واشار الى حرسه قائلا فى ثورة حقد وغضب :

ــ أريد منكم أن تقبضوا على الغلام الذى أصابتنى زهرته بهذا الجرح ، وأن تفقئوا عينيه فى الحال ، وفى وسط هذا الميدان !

وانطلق الفرسان بخيولهم يطاردون الصبيان الذين تولاهم الهلع فتفرقوا فى الازقة وانسابوا بين جمهور المتفرجين . وتوقف الموكب عن السير ، الى أن عاد الفرسان قابضين على بضعة أطفال بينهم واحد قرر رفاقه أنه صاحب الوردة الاثيمة المثقلة بحجر ، والتى أصابت الجبين الامبراطورى وجرحت العين الملكية !

***

وفى ميدان « أيا صوفيا » وعلى مرأى من الناس الذين جاءوا لتحية الامبراطور قسطنطين وأمه « ايرين » ، أوثق الجند يدى ذلك الغلام المسكين خلف ظهره ، وتناول واحد منهم خنجره وفقأ العينين الصغيرتين ، والصبى يصرخ من الألم ، ويبكى بدل الدمع دما ، ورفاقه يرتعشون من الخوف ويبكون مثله دموعا غزيرة ! ..

ولما انتهى الجند من مهمتهم الوحشية ،

قال الامبراطور :

ــ ابحثوا الآن عن أم هذا الطفل ، وقولوا لها اننى سأجرى عليها معاشا من خزينة الدولة ، لكى تعنى بابنها الضرير ، وتعلمه كيف يحترم الامبراطور بعد الآن !

وأصدر أمره بمواصلة السير .

***

كان «قسطنطين السادس» أمبراطور الروم ، فى العاشرة من العمر عندما خلف أباه « لاوون» الرابع على عرش القسطنطينية ، فى سنة ٧٨٠ للميلاد . وتولت الوصاية عليه أمه « ايرين » الطموح المتعجرفة القاسية . فاستأثرت بالسلطة واستبدت فى حكم الرعية ، وانغمست

عن المشاحنات الدينية التي كانت العاصمة الرومية في ذلك الوقت مسرحا لها ، واغترفت الاموال بلا حساب ولا رقابة من خزينة الدولة ، فانفقتها على ملاذها وعلى العناية بالحرس الذي أحاطت به نفسها ، خوفا من ثورة الشعب وبطش النبلاء ، وأوفدت رسلها المزودين بالمال والهدايا الى الاقاليم التابعة للامبراطورية الرومية الشرقية ، بل الى ما وراء حدود الامبراطورية ، الى بلاد الارمن وسورية ولبنان ومصر والحبشة ، لاغراء الرجال الاشداء واختيار ذوى الجراة والاقدام منهم للانخراط في سلك ذلك الحرس الخاص ، فوفد اليها العاطلون والمرتزقة وهواة المغامرة من كل فج وصوب .

وكان بين الوافدين رجل من مدينة بيروت يمارس صيد الوحوش والجوارح في غابات لبنان ، ويعرف باسم « بولس الصياد » نسبة الى مهنته . وقد غره المال وزاده رغبة في الرحيل الى عاصمة الروم المشهورة ، قبول رسل الامبراطورة إن ترافقه زوجته « سوسان » وتظل ملازمة له في القسطنطينية .. فما ان استقر الزوجان اللبنانيان في موطنهما الجديد ، حتى صار « بولس » موضع رضا رؤسائه ، واسترعت قامته الفارعة أنظار الامبراطورة نفسها ، فأمرت بأن يكون واحدا من الحراس العشرة الذين يتناوبون السهر على حياتها ليلا ونهارا ، اثنان منهم بعد اثنين !

***

ورزق « بولس الصياد » من زوجته ابنا سماه « قسطنطين » تيمنا باسم الامبراطور الصغير ، ابن الامبراطورة التي اخلص الرجل في خدمتها وتفانى في السهر عليها .

وظل قسطنطين السادس مستسلما لامه ، خاضعا لارادتها ، وكانت هي من ناحيتها تهمل تربيته ، وتتعمد تغذية روح الضعف والخمول في نفسه ، وتثير في صدره الحقد على عظماء المملكة واقطاب الدولة وقواد الجيش ، وتوهمه أنها الشخص الوحيد في العالم الذي يحبه ويرعاه ويحميه من غدر الغادرين وكيد الكائدين ، فيزداد الفتى تعلقا بها ، وانقيادا لها ، اعتقادا منه أن ممارسته للحكم من دونها سوف توردة موارد الهلاك !

ولكن النبلاء في العاصمة ضاقوا ذرعا بالامبراطورة العاتية ، وتململ الشعب في النهاية من وطأة الطغيان ونهم « ايرين » الدائمة السعي الى المال ، حتى بلغ بها الامر أن جعلت تتجر بقوت الكادحين من

ابناء الطبقات الفقيرة ، وتبيع الرتب والالقاب بالمزاد ؛ وتفرض الضرائب حتى على الاديرة والكنائس ، مما اثار ايضا نقمة رجال الدين ودفعهم الى التآمر عليها مع النبلاء وعامة الشعب .

وشعرت الامبراطورة بأن التذمر بدأ يدب فى صفوف رعيتها من أعلى الطبقات الى أسفلها ، فبثت جواسيسها فى كل مكان ، وتذرعت بمختلف العلل والاسباب للقبض على بعض من وشي بهم اولئك الجواسيس ، فحكمت عليهم بأن تفقأ عيونهم ؛ وكان هذا النوع من العقوبة كثير الشيوع فى القسطنطينية ، وكانت ايرين دائما تهمس فى أذن ابنها الامبراطور الشاب : « لا تعمد فى الانتقام من اعدائك الا الى نوع واحد من التعذيب : افقأ عيونهم ودعهم يجروا فى الظلام اثقال الايام والآلام » ! وعنها تلقن الابن هذا الدرس ؛ فراح يقلد أمه ويأمر بأن تفقأ عيون الذين تحل بهم نقمته ، أو يبدر منهم شيء لايرضي عنه الشاب المتوج الرعديد .

ولكن وطأة الطغيان جعلت كأس الصبر تطفح فى القسطنطينية ، وتسرب التذمر الى الجيش فتآمر قواده على خلع الامبراطورة ونزع كل سلطة منها ، واتفقوا على أن يخلعوا الامبراطور نفسه اذا رفض التخلى عن امه وآثر رضاها على رضا الجيش والشعب . وفى أواخر سنة ٧٨٩ ، زحف الجيش على القصر الامبراطورى ؛ ووجه انذاراً الى قسطنطين السادس ؛ فأذعن الامبراطور للانذار ؛ واستجاب لرغبة الشعب ، وأمر أمه بأن تعتزل الحكم وتعتكف فى أحد قصورها ، بعيدة عن الحياة العامة وعن التدخل فى شئون الدولة . كما أمر بأن يسرح رجال الحرس الخاص بالامبراطورة ؛ وأن يصرف لهم معاش من خزينة الدولة ، فانزوى كل منهم فى بيته . وكان ممن شملهم هذا القرار الجندى « بولس الصياد » فانصرف من جديد الى الصيد والقنص فى الجبال والغابات ، على حين كانت زوجته تواصل العناية بشئون المنزل وتربية وحيدهما قسطنطين .

غير أن استئثار الامبراطور بالسلطة لم يكن حلا للازمة التى تعانيها الامبراطورية المضعضعة . ولم يكن قسطنطين السادس الرجل الحازم الذى يستطيع ان ينهض بالبلاد من كبوتها ، وان يعيد الى النفوس طمأنينتها . فقد أدى اضطلاعه وحده بمقاليد الحكم الى حدوث انقسام فى الرعية ، وعادت المشاحنات الدينية الى سابق عهدها ، وادرك الشاب المسكين أن يده أضعف من أن تقبض على زمام الامور ، وما مرت سنتان على اعتزال أمه ، حتى كان قسطنطين يهرع اليها متوسلا باكيا ، ويرجوها

أن تعود الى سابق سيرتها معه ، فتشاركه فى الحكم ، وتسند عرشه بحزمها وجراتها !

وخرجت « ايرين » من عزلتها ، ملبية نداء ابنها ، ونسي الشعب ــ والشعوب سريعة النسيان ــ ما كان منها بالامس وكيف أرغمت عَلَى التخلى عن السلطة ، فاحتشد الناس على جانبى الطرق والشوارع ، وملئوا الميادين ، ووقفوا فى شرفات المنازل وعلى سطوحها ، لتحية الامبراطورة التى احتفل ابنها بعودتها ، واقام ذلك المهرجان ، وأمر بأن تجرى المسابقات والمصارعات فى الملعب الامبراطورى ، تكريما لامه وابتهاجا بمقدمها .

***

فى ذلك اليوم الذى اراده قسطنطين السادس أن يكون يوم عيد مفعم بالسرور ، وقعت حادثة الغلام الذى قذف زهرة مثقلة بحجر ، فجرح صاحب العرش فى جبهته ، وصدر الامر الامبراطورى بأن تفقأ عيناه ، ونفذ الامر فى ساحة الكنيسة .

ولم يكن ذلك الغلام غير سميه قسطنطين ، ابن الجندى السابق بولس الصياد وزوجته سوسان اللبنانيين !

***

كان ذلكَ فى سنة ٧٩٢ . وقد نقل الغلام الضرير مغمى عليه الى بيت ابويه ، وكانت مناحة فى البيت الهادىء ، بكت فيها الام مصابها فى وحيدها ، ولعن فيها الاب تلك الساعة التى هجر فيها وطنه اغترارا بالمال،ودخل فى خدمة قوم خلقوا على صورة البشر ولكن صدورهم انطوت على أبشع الغرائز الحيوانية ، فهم والوحوش الكاسرة التى يطاردها بولس الصياد فى البرارى والاحراج سواء بسواء .

رفضت « سوسان » قبول المعاش الذى اراد الامبراطور أن يجريه عليها ، قائلة انها لاتتقاضي ثمن عينى ولدها ، اللتين سملتا بأمر من الطاغية ، وان زوجها قادر والحمد لله علىالانفاق عليها وعلى ابنها ، وان كنوز الامبراطورية كلها لن تعيد الى الغلام المسكين نعمة البصر ولن تعوضه عن فقدها . .

واحاطت الام الحزينة وحيدها بعطفها وحنانها ، وتباحثت مع زوجها فيما بقى عليهما أن يصنعاه بعد تلك الكارثة التى حلت بالاسرة الصغيرة، فاقترح الزوج ان يرحلوا جميعا عن بلد هذا مبلغ الهمجية فيه ، وان

يعودوا الى وطنهم الذى هجروه ، ويستأنفوا فيه حياتهم فى جو خال من الدسائس ، وبين أناس تربطهم بهم أواصر المحبة ووحدة الآمال والأمانى .

ولكن الزوجة عارضت فى هذا ولم توافق على الحل الذى اقترحه زوجها . فهى تريد أن تنتقم وان تأخذ بثأر ابنها من القساة الظالمين ، الذين حرموه النور وهو لم ينعم بعد بالحياة وهنائها . وقالت المرأة للرجل بعد أن أفضت اليه بعزمها على البقاء فى العاصمة :

ــ العين بالعين يا بولس ! .. لقد سمل الامبراطور عينى ولدى، فسوف أقف حياتى كلها لبلوغ هدف واحد لن أسعى الى ســـواه بعد الآن .

ــ وما ذلك الهدف يا سوسان ؟

ــ سأحرم قسطنطين الامبراطور البصر ، كما حرم هو قسطنطين ولدى البصر ، وسيموت الطاغية أعمى كما سيموت وحيدنا هذا أعمى !

ــ وكيف السبيل الى ذلك ؟

ــ سوف تدعو الامبراطورة غدا رجال حرسها الســــابقين الى استئناف الخدمة فى قصرها ، فلن تلبى النداء أنت ، بل تعتذر عن تخلفك بأنك مريض محتاج الى الراحة . ولكنك ستطلب من الامبراطورة أن تأخذنى أنا فى خدمتها ، وصيفة أو قهرمانة . وتذكرها بأننى أحســـن فن التجميل وأتقن استخراج العطور من الزهور والادوية من الاعشاب ، هذا ما أريده منك ، واما الباقى ، فانه من شأنى أنا .

***

نجح بولس الصياد فى التهرب من الخدمة فى حرس الامبراطورة ، وفى حملها على قبول زوجته سوسان وصيفة فى قصرها . وراحت المرأة تتفنن فى ارضاء مولاتها بما كانت تبتكره من وســـائل التسلية وانواع التجميل والتبرج واعداد العقاقير وما كانت تسميه « ماء الحياة واكسير الحب وزبدة الهناء » مدعية ان ذلك كله علم سرى ورثته عن أجدادها الذين ورثوه من ناحيتهم عن قدماء الفينيقيين ، وقد اخذه هؤلاء عن الكهنة المصريين وخدام المعابد فى منف وطيبة ! وصدقت « ايرين » ما ذهبت اليه « سوسان » واطمأنت اليها ، واتخذتها رفيقة لها وأمينة على أسرارها ، وما مرت شهور حتى كانت المرأة اللبنانية صاحبة الامر والنهى فى قصر الامبراطورة ، لا ترد لها رغبة ولا يخالف لها أحد رأيا .

ولما وثقت « سوسان » من مركزها ، جعلت تنفذ — مرحلة بعد مرحلة — الخطة الماكرة التي رسمتها في ذهنها . فتقربت من ذوى النفوذ في القصر والجيش ، وراحت توغر صدر الامبراطورة الام على ابنها ، وتوهمها بانه يكيد لها في الخفاء للتخلص منها مرة أخرى . بل للقضاء على حياتها لكى يخلو له الجو من جديد ويستأثر بالحكم . فاعتقدت ايرين في النهاية ان قسطنطين السادس انما جاء بها من عزلتها الى القصر ، لا للاستئناس برأيها والاعتماد على مشورتها كما يدعى . بل ليقتلها ويأمن شرها .

وفي الوقت نفسه ، كان شركاء « سوسان » في قصر الامبراطور يثيرون نقمته على امه ، ويغذون مخاوفه منها ، فاعتقد قسطنطين من ناحيته أن « ايرين » ستعمد في اول فرصة سانحة الى قتله لتصبح وحدها سيدة الامبراطورية بلا منازع .

وفي ليلة من الليالي المظلمة . سنة ٧٩٧ ، وثب أنصار الامبراطورة على القصر وقبضوا على الامبراطور وجاءوا به موثق اليدين الى أمه !

وكانت « سوسان » رابضة على مقربة من مولاتها . عندما دخل الابن عليها . فلاحت للمرأة اللبنانية صورة وحيدها الضرير . وارتسمت على محياها الجميل امارات الحقد والشراسة وهي تنظر الى وجه الامبراطور الشاحب . والى عينيه الجاحظتين من الخوف : أنه لا يزال ينعم بالبصر ، فيرى النور ويرى الشمس ويرى وجوه الناس والوان الزهور ! اما ابنها ، فانه يعيش في ظلام دامس لن تبدده الايام .

وانسابت المرأة انسياب الحية نحو الامبراطورة ايرين الجاثمة على أريكتها ، وهمست في اذنها هذه الكلمات :

— اما ان تسملى عينيه اليوم . واما أن يسمل عينيك غدا ، هذه سنة اسرتكم وهذه تقاليدها يا مولاتي !

فأخفت الامبراطورة وجهها بين يديها ، وهمهمت قائلة في حشرجة ارادتها أن تكون امرا ملكيا :

— انزلوا به العقوبة التي تعرفون !

ووثب زبانية الامبراطورة على الامبراطور ، ولكن سوسان اللبنانية كانت اسرع منهم ، فقد تناولت من صدرها دبوسا فضيا اعدته لتلك الساعة الرهيبة منذ أعوام . وانقضت على قسطنطين السادس ، وطعنت

بيدها الطعنة الاولى فى العينين الجاحظتين . ودوى صياحها فى ارجاء القاعة أشبه بالزئير :

ـ لقد ثأرت لك يا قسطنطين من قسطنطين !

***

كان ذلك فى سنة ٧٩٧ . وقد صبرت سوسان وانتظرت خمسة أعوام ، حتى أزفت ساعة الانتقام الذى سعت اليه فقد سملت بيدها عينى الامبراطور الذى أمر فى سنة ٧٩٢ بأن تسمل عينا وحيدها ، وعادت الى زوجها فرحة متهللة . وأكبت على ابنها الضرير تغمره بالقبلات ، وقالت فى لهجة ثابتة هادئة ، وقد انبسطت أساريرها :

ـ الآن يمكننا أن نرحل عن هذا البلد الموبوء ، وأن نرجع الى وطننا الجميل ، فهيا بنا يا بولس .

وقفلت الاسرة الصغيرة عائدة الى جبال لبنان .

أما الامبراطورة « ايرين » فقد جلست على عرش الامبراطورية الرومية الشرقية وحدها ، واتخذت لنفسها لقب « امبراطور » وحكمت بمفردها خمسة أعوام أخرى ، الى أن حدثت ثورة ثالثة خلعتها عن العرش ، ولكن الذين خلعوها لم يعمدوا الى توقيع العقوبة التقليدية عليها ، ولم يسملوا عينيها ، بل نفوها الى جزيرة لسبوس فى سنة ٨٠٣ ، فماتت فيها بعد عشرة شهور من وصولها اليها .

وقد عاصرت هرون الرشيد ، الذى غزا بلادها ، وهزم جيشها ، ثم عقد معها صلحا وفرض عليها جزية وساعدها على البقاء على العرش .



بيزنطية تتعبد في مخدعها



أحبها اثنان وأخلصا لها ، فخانتهما ،
وأحبت ثالثا وأخلصت له فخانها !

الليل مظلم حالك السواد . لاقمر فى سمائه ولا نجوم . فقــــد نشرت الغيوم بينهــــا وبين الارض ســــتارا كثيفا . والسكون تام شامل ، لا يمزقه من وقت الى آخر غــــير ضرب المجاديف صفحة الماء ، وزحف الزوارق زحفاسريعا بين ضفة البوسفور الجنوبية وضــــفته الشمالية .

وفى الزورق رجل ملتحف برداء قاتم . ومعه أربعة من الخدم يدفعون الزورق بمجاديفهم نحو مكان عينه لهم سيدهم . وهم يتجهون اليه بدون أن يرود .

ووصل الزورق الى مرسى الامان . وقفز منه الرجل الملتحف بالرداء القاتم واتجه مسرعا الى سور شاهق فى نهايته باب صغير . ونقر على الباب أربع نقرات . ففتح الباب . وظهرت منه جارية ملثمة بخمــارها ، فدخل الرجل . وتبع المرأة بين أشجار الحديقة الوارفة . واجتاز معهــا سردابا فى نهايته باب آخر . ثم ممر ، ثم باب .

وتقبل « جان زيميزيس » بين ذراعيه حبيبته « تيوفانون » وكان عناق وكانت ساعات كلها غرام وسعادة وهناء . أضيفت الى ماسبقها من ساعات مماثلة لها .

وقبيل الفجر ، أراد الرجل أن ينصرف من مخدع حبيبته . عائدا من حيث أتى ، فأمسكت به تيوفانون ومنعته من الخروج قائلة :

ــ لا يا جان ، لن أرضى بأن تستمر علاقاتنا على هذا النحو من القلق والاضطراب والخوف . يجب أن تبقى هنا . واذا كــــان لابد أن يخرج من القصر أحد ، فلن تكون أنت ذاك الرجل . . بل الامبراطور !.

وطوقت المرأة عنق الرجل بذراعيها العاريتين . وأعطته قبلة وأخذت أخرى ، ثم جلسا يتبادلان الحديث . ويرسمان خطة المؤامرة التى اعتزما القيام بها للتخلص من الامبراطور . والاستئثار بالعرش .

وتم الاتفاق بين الاثنين على تلك الخطة جملة وتفصيلا . وارتاح

« جان زيمبزيس » الى ما عرضته عليه « تيوفانون » والى القسم الذى قطعته على نفسها بأن تظل وفية له مهما تكن الظـــــروف والأحوال فى مستقبل الايام . وقابل قسمها بقسم مثله . وقضيا ذلك اليوم فى خلوة تامة ، فلم تدخل عليهما فى مخدع الامبراطورة غير تلك الجـــارية التى أطلعتها تيوفانون على كل أسرارها .

ولما أسدل الليل ستره مرة أخرى ، أوى الرجل الى الفراش ، واستغرق فى نوم هادىء ، مستسلما للاحلام الحلوة التى بدات تتحقـق شيئا فشيئا .

أما المرأة ، فقد جلست بجوار الشرفة المطلة على حدائق القصر ، واطلقت لذكرياتها العنان ، فمرت فى ذهنها الحقائق والوقائع التى تخللت حياتها ، وهى أروع من كل حلم وأجمل من كل خيال !

***

رأت « تيوفانون » نفسها طفلة عارية القدمين تمرح فى الأزقة مع الأطفال أبناء الجيران ، فى الحى المعروف بحى الخمارات والحـانات ، بمدينة القسطنطينية المترامية الاطراف .

أبوها سورى من أنطاكية وأمها مصرية من الاسكندرية . ساقتهما الاقدار أمامهــا دفعا الى عاصمة الامبراطورية البيزنطية ، حيث التقى السورى بالمصرية ، وكانت هى تبحث عن رفيق . وفى ديار الغـــربة ، تزوج الغريبان ، وفتح الرجل حانوتا لبيع الخمور ، وكانت زوجته الشابة تساعده فى عمله

ورزقا ابنة وحيدة هى تيوفانون .

ولما بلغت الطفلة العاشرة من العمر ، أعدها والدها لخدمة الزبائن فى الحانة .

وكانت ذات يوم تطوف بشوارع المدينة الكبيرة مع أمهـــا ، فرأت الامبراطور قسطنطين الســـابع فى موكبه ، يجتاز الشوارع ومعــــه الامبراطورة زوجته . فقالت لها أمها :

ـ تمنى شيئا يا تيوفانون ... فان الله يحقــق الأمنية التى يعبر عنها الاطفال اذا ما فعلوا ذلك أمام الامبراطور والامبراطورة !

وقالت تيوفانون بكل بساطة :

انمنى يا اماه ان اصبح امبراطورة مثل هـــذه . وان يكون زوجى امبراطورا مثل هذا ! .

وضحكت الام . وضحك الاب لما رددت زوجته على مسامعه ما تمنته ابنتهما الصغيرة . وضحك الجيران وابناء الجيران .

وضحكت الاقدار أيضا ولكنها شاءت أن تتحقق أمنية تيوفانون ابنة الخمار السورى .

***

فقد مرت الايام وانقضت الأعوام ، وشبت الصغـــيرة وترعرعت ؛ وفى لفتة من لفتات تلك الاقدار ، وقع على الحسناء نظر الامير « رومانوس » ابن الامبراطور قسطنطين السابع ، فعلق بها ؛ وسعى الى لقائها . ووضع تحت قدميها ماله ومركزه وقلبه . فكان رد الفتاةعلى تلكالمكاشفة الغرامية أن قصتعلى الامير ابن الامبراطور ما حدث لها مع امها يوم التقتبموكب ابيه فى شوارع بيزنطة

فصاح رومانوس قائلا :

ــ اذن . ستصبحين زوجتى ، وعندما أرتقى العرش . ستصبحين امبراطورة متوجة ، فتتحقق الامنية التى توجهت بهـــا الى الله فى ذلك اليوم السعيد !

كان ذلك فى سنة ٩٥٦ للميـــلاد : فقد تزوج الامير رومانوس ابن الامبراطور قسطنطين الســــــابع ، الفتاة تيوفانون ابنة صاحب الحانة السورى .

وبعد ثلاثة أعوام ــ أى فى سنة ٩٥٩ ــ مات قسطنطين ، وخلفه رومانوس على العرش ، وتكرر لتيوفانون ما حدث من قبـــل لتيودورا فأصبحت الفتاة المجهولة الوضيعة امبراطورة على بيزنطة !

***

لم يحقق « رومانوس الثانى » الآمال التى وضعها شعبه فيه . لأنه انصرف الى اللهو بدل أن ينصرف الى الاهتمام بشئون الدولة . وشـــجعته زوجته الحسناء على المضى فى عبثه ، لانها كانت شديدة الظمأ الى التمتع بملاذ الحياة ، ولم تكن تحب زوجها فدفعت به الى أحضان الرذيلة ليخلو لها الجو فتندفع من ناحيتها الى الطريق الذى تريد .

ولكن السنوات القليلة التى قضاها رومانوس على العرش ، كانت مفعمة بالاحداث الحربية والفتوح والغزوات التى تولاها قادة موهوبون على راسهم « نكفورس فوكاس » .

ولما أشرف الامبراطور على الموت ، كانت الزوجة قد حسبت لكل مفاجأة حسابها ، فتقربت من القائد المنصور المحبوب من الشعب ، وكاشفته بحبها ، واتفقت معه على أن تسنده فى سعيه ليتبوأ العرش بعد رومانوس ، على شرط أن يبقيها هى على ذلك العرش ، فيجعلها زوجته بعد وفاة زوجها !.

وفى سنة ٩٦٣ ، مات رومانوس الثانى فى الرابعة والخمسين من العمر ، وأجلس الجيش على العرش قائده « فوكاس » وأبقى الامبراطور الجديد زوجة الامبراطور السابق امبراطورة بجانبه .

وتحققت الامنية مرة اخرى ، واحتفظت المرأة ذات الزوجين بعرش بيزنطة .

***

كان نكفورس فوكاس فى الواحدة والخمسين من العمر ، وهو ربيب الحروب ، واخو النصر ، وحبيب الشعب . ولكنه ليس بالرجل الحائز على قلب تيوفانون وان كان حائزا على رضاها وتاييدها ، فقد حالفته تلك المرأة الجميلة الطموح ، ومهدت له السبيل الى العرش ، واعطته ذراعها فاستند عليها لارتقاء درجاته . ولكنها لاتحبه .

رضيت به زوجا لتحتفظ بالملك . وبحثت عن عشيق بين رجال حاشيته لتغذى قلبها بعاطفة الحب .

ووقع اختيارها على القائد « جان » الملقب بالصغير — اى زيميزيس — وهو أرمنى من سورية ، ولد على ضفاف الفرات ، وجاء الى بيزنطة كما جاء اليها من قبل والد تيوفانون ووالدتها ، فضحك له الحظ وساعدته الظروف ، فانتقل من حال الى حال ، واحرز على رأس حملات عسكرية متوالية ، انتصارات باهرة فى الشرق والغرب ، فأثار بذلك حسد اقرانه من قواد الجيش .

ومما ضاعف حسدهم وجعل الحقد يأكل قلوبهم ، أن الامبراطورة تيوفانون خصت القائد زيميزيس بعطفها ، وان ذلك العطف تحول سريعا الى حب فهيام .

وفطن الجميع الى تلك العلاقة التي قامت بين الامبراطورة والقائد المحظوظ . ماعدا الزوج الامبراطور نكفورس فوكاس :

ولكن الحساد خصـــوم جان زيميزيس تطوعوا باطلاع الامبراطور على ما كان يجهل ، وفتح عينيه على ما كان خافيا عنه . واعطائه الدليل الملموس على خيانة زوجته وقائد جيشه .

واطلع نكفورس ورأى . وأيقن أن ما قيل له صحيح لا شك فى صحته. وعول على الانتقام .

ولكنه كان يخاف زوجته ، ويعرف أن سلطانها عظيم ونفوذها واسع وان فى مقدورها انتزاع العرش منه اذا شاءت .

فقرر أن يضرب ولكن بعد أن يضع قبضته فى قفاز من حرير .

وتشاور معقواده المحسودين منالعاشق السعيد . واسفر التشاور عن صدور أمر من الامبراطور الى القائد جان زيميزيس بأن ينتقل الى قصر وضعه نكفورس تحت تصرفه على ضفة البوسفور الاسيوية . ويتخذه مقرا لقيادته . على أن تمتد تلكالقيادة الى الحاميات المرابطة فىآسيا الصغرى وألا يزور القائد مدينة بيزنطة العاصمة الا باذن خاص من الامبراطور !

ومعنى هذا الأمر أن القـــائد جان زيميزيس ، عشيق الامبراطورة تيوفانون ، قضى عليه بالاقامة الجبرية فى قصر منيف . بعيدا عن عشيقته .

وانفجرت مراجل الحقد فى صدر المرأة .

انها لاتحب الامبراطور ، الذى يدين لها بعرشه . فهل تسكت على تلك المؤامرة التى أراد بها الزوج الغيور اقصاء عشيقها عنها ، وربما أراد بها أيضا التخلص منه بالسم أو بالخنجر ؟

كلا ! أن تيوفانون لن تسكت !

ولم تسكت فى الواقع : فقد خابرت عشيقهـــا سرا . ومهدت له السبيل لكى يخرج من قصره ليلا ، كلما أراد ذلك . ويجتاز البوسفور . ويجيئها الى مخدعها فى القصر الامبراطورى ، حيث يجتمع العشيقان .

ولكن الامبراطورة العاشقة تعبت مع الايام من التخـــفى واللف والدوران .فاعتزمت ان تضع حدا لهذه الحالة .

ورسمت خطة الخلاص مع عشيقها ، فى ذلك اليوم الذى استبقته

فيه داخل مخدعها ، فى القصر الامبراطورى ، ومنعته من العودة الى مقره على ضفة البوسفور الجنوبية .

***

قالت تيوفانون :

ــ هذا هو سبيل الخلاص الوحيد : مؤامرة فى داخل القصر ، وتأييد من الجيش لقائده ، وفتك بالملك ، وجلوسك مكانه على العرش !

ووافق جان زيميزيس ، وبدأ منذ ذلك اليوم يعد العـدة لتنفيذ ما اعتزمه مع عشيقته .

وشعر الامبراطور فوكاس بأن الجـو يتسمم حوله ، وان مؤامرة تحاك خيوطها فى داخل القصر وخارجه . فخاف على حياته ، واعد برجا من الابراج الحصينة ، فى احد اطراف الحديقة ، على ضفاف البوسفور ، ليكون له مقرا ومقاما .

واصبح الصراع سافرا بين الامبراطورة وعشيقهـا واعوانهما من ناحية ، والامبراطور وقواده المخلصين من ناحية أخرى .

وكان لا بد أن يهـــزم فريق وينتصر فريق ، وأن يبقى المنتصرون ويقضي على المهزومين .

وفى ليلة ليلاء ــ ١٠ من ديسمبر سنة ٩٦٩ ــ نفذت خـــادمات الامبراطور ، اللواتى اشترتهن تيوفانون بالمال ، أوامر مولاتهن ، لتمكين المتآمرين من دخول البرج والفتك بالامبراطور .

ففى تلك الليلة ، تدلت من نوافذ البرج ســـلال ضخمة مشدودة الى حبال .

واستقرت السلال فى أسفل البرج ..

وتربع فيها جان زيميزيس وأعوانه ، فرفعتهم الخادمات الى أعلى ، ودخلوا البرج من نوافذه .

وكان الامبراطور نكفوس فوكاس نائما فى حجـــرة ضيقة ، على فراش من جلود الدببة .

ولمعت النصال فى أيدى المتآمرين ، وتدفقت الدماء من عشرة جروح مزقت جسم الامبراطور .

وبعد ساعة كان جان زيميزيس قد استولى على القصر الامبراطورى وكان أعوانه قد أعلنوا فى ميادين العاصمة ، وقبل أن ينتظروا طلوع الفجر ، أن امبراطورا مات ، وامبراطورا خلفه !

***

وافق الشعب على ماحدث . وهلل وصفق وهتف . وأقسم الجيش يمين الولاء لقائده وقد أصبح امبراطورا باسم « جان الاول » وردد اسم « تيوفانون » مقرونا باسم الامبراطور الجديد . لان الشعب كان يعلم ويدرك أن ما حدث انما هو من صنع الحسناء التى يجرى فى عروقها مزيج من الدم السورى المصرى ، والتى احبها الناس بالرغم من عيوبها وسيئاتها ، واعتقدوا فى النهاية انها ساحرة قادرة على اللعب بالقلوب والعقول بقدرة خارقة .

ولكن رجال الدين ، وعلى رأسهم البطريرك الاكبر ، رفضوا تتويج الامبراطور الجديد الا اذا ابعد الامبراطورة زوجة الامبراطورين السابقين عن العاصمة ، ونفاها فى أحد الاديرة .

وتغلبت المصلحة على العاطفة ، وانهزم الحب أمام الطمع ، وقرر جان زيميزيس أن يضحى بالمرأة من أجل العرش .

فقبض على تيوفانون ، وأرسلها فى حراسة شديدة الى دير بجزيرة « بورتى » .

واستأثر بالعرش لنفسه ، وظل جالسا عليه الى أن فاجأه الموت فى سنة ٩٧٦ . ففتحت أبواب الدير لتخرج منه « الراهبة » تيوفانون !

***

عاشت الامبراطورة السابقة ما بقى من عمرها فى جناح منعزل داخل القصر الامبراطورى ، ممتنعة عن التدخل فى شئون الدولة ، مختلية بذكرياتها الكثيرة ، مستعرضة ماضيها العجيب .

ثلاثة رجال أدوا دورا فى حياتها وأدت هى دورا فى حياة كل منهم .

تزوجت الأول عن طمع ، فأحبها وأخلص لها :

وتزوجت الثانى عن مصلحة ، فأحبها أيضا وأخلص لها :

ولكنها خانت الأول ، وخانت الثانى !

أما الثالث ، فقد أحبته ورفعته الى العرش وأرادت أيضا أن تتزوجه فتخلى عنها ، وخانها !.

والحياة مملوءة بالحب والخيانة !

رسم قديم لاسوار عكا



لعب بقلوب النســاء ، فلعب
الحب بقلبه ، وألقــاه ذليلا
طائعا خاضعا بين أيدي خصومه!

نزع « أندرونيكوس كومنين » حمائل سيفه ودرعه الثقيلة وخوذته الفولاذية ، والقى بذلك كله على الأرض أمام « نيكفوروس » حـــاكم « طرابزون » ، وقال بصوت متهدج والعبرات تكاد تخنقه :

ـــ لقد لعبت بقلوب النســـاء كما لعبت بعقولكم جميعا يا حكـــام الامبراطورية البيزنطية . وها هو ذا الحب يقهرني اليـــوم فاقف أمامك مستسلما ذليلا !.. ابعث بي الى سيدك الامبراطور ، ليفعل بي ما يشاء ، على شرط الا يفرق بيني وبين المراة التي احب !

فارتسمت على وجه الحـــاكم البيزنطي أمارات الارتياح الممزوج بالحقد والتشفي ، وأجاب بلهجة جافة :

ـــ للأمبراطور مانوئيل كومنين وحده ان يصدر حكمه لك أو عليك . وفي يده دون سواه الأمر والنهي !

ـــ ان رابطة الرحم تجمع بين الامبراطور وبيني ، فأرجو الا يكون موقفه اقل نبلا وشهامة من موقف السلاطين والأمراء المســـلمين الذين احلوني في كنفهم ضيفا مكرما !

وفي اليوم التالي ، خرج الأسير من مدينة « طرابزون » في حراسة كوكبة من الفرسان ، عهد اليها الحاكم « نيكفوروس » بأن ترافقـــه الى بيزنطة مقر الجالس على العرش .

***

في طريقه الى عاصمة الامبراطورية ، لزم «أندرونيكوس» الصمت ، وراح يفكر في ماضيه المضطرب ، وفي مستقبله المجهول .

من هو ؟ وماذا صنع ؟ وما الذي دعاه الى تسليم نفسه من اجل امراة ؟ .

هو ابن عم الامبراطور « مانوئيل كومنين » والشـــــعب البيزنطي يعرفه ، ويقدر شجاعته في الميادين ، ويعده أجمل الرجال ، وأوفرهم قوة

وأبعدهم صيتا ، وأجلاهم حديثا ، وأكثرهم تأنقا ، وأحبهـــم الى قلوب النساء !

ولم يكن البيزنطيون مخطئين فى اعتقادهم هذا . فان « أندرونيكوس كومنين » كان يجمع بين تلك الصفات ، ولكنه يمزجها بكثير من العيوب ، وهو فوق ذلك كله سكير عربيد !

وكانت النساء شغله الشاغل ، يبحث عنهن بحث النحلة عن طيب الأزهار ، ويلاحقهن فى الجهر والخفاء ، ويطاردهن فى المدن والقرى والحقول : لا يصحو من نشوة الحب الا فى ميادين القتال ، ومن نشوة النصر الا فى خدور الحسان !

أراد ابن عمه « مانوئيل كومنين » أن يبعـــده عن العاصمة فعينه قائدا لكتائب الفرسان فى مقاطعة «كيليكيا » وكان ذلك فى ســـنة ١١٦٦ ميلادية ، الموافقة لســـنة ٥٦١ للهجرة ـ وقد جاوز « أندرونيكوس » السادسة والاربعين . وما كاد يستقر به المقام فى منصبه ، حتى اندفع فى مغامرة غرامية جديدة ، اثارت عليه كوامن الحقد فى صدر ابن عمه الامبراطور .

فقد كان للامبراطورة « مارى » ، زوجة « مانوئيل كومنين » ، أخت تدعى « فيليبا » تقيم مع اخيهـــا « بوهيموند الثالث » الصليبى ، أمير انطاكية . وكانت « فيليبا » فى الحـــادية والعشرين من العمر ، فعول « أندرونيكوس » على التغرير بها كما غرر بسواها من قبل ، فأسرع الى انطاكية حيث جعل يضيق الخناق على الفتاة الجميلة الفاتنة ، ويمنيهـــا بالوعود ويخدعها بالعهود ، قائلا : أنه يريدها زوجة له ، تشاركه فى حياته وثروته ومجده ، فوقعت « فيليبا » فى حبائله ، واستسلمت له ، وأصبحت علاقة القائد بغادة انطاكية الهيفاء حديث المجالس فى المدينة ، وبلغت أخبارهما مسامع الامبراطور فى بيزنطة .

غضب « مانوئيل » واوفد الرسل الى ابن عمه ينذره بوضع حد لتلك الفضيحة الاخلاقية الجديدة ، ويدعوه الى العـــدول عن المضي فى غوايته ، ولكن « اندرونيكوس » أصم اذنيه عن نداء الامبراطور ، واجاب الرسل قائلا : متى كان لصاحب العرش أن يتحكم فى قلوب الرعية ؟ »

وعمد « مانوئيل » الى آخر سهم فى كنانته ، فأوفد الى ابن عمـــه المغامر فى هذه المرة رجلا له من اســـمه ومنصبه وماضيه ما يكفى من رهبة وسلطان ، لارغامهما على الافتراق . ذلك الرجل هو الامير البلغارى

«كولومان» حاكم « كيليكيا » العام ونائب الامبراطور فيها . ولكن عبثا حاول ذلك السياسي الداهية أن يقنع « فيليبا » بأن تقلع عن سلوكها الشائن ؛ وبلغ به الهوس أن عرض عليها الزواج اذا هجرت حبيبها . فرفضت الاميرة الافرنجية رجاءه وظلت بضعة شهور تظهر امام الناس برفقة « أندرونيكوس » .

غير أن « أندرونيكوس » نفسه هو الذى هجرها . فخسرت «فيليبا» فيه صديقا ؛ وخسرت فى الحاكم « كولومان » زوجا . . .

***

كانت سنة ١١٦٧ قد اقبلت ، فعزم « أندرونيكوس » على العودة الى كيليكيا او الى بيزنطة . ولكن الامبراطور حرم عليه دخول أراضيه ؛ فاتجه صياد النساء الى القدس حيث له هناك أصدقاء ومريدون . واستقبله الصليبيون بالترحاب . وكان ملكهم « أمورى » فى ذلك الوقت منهمكا فى حملته العسكرية على مصر . وعندما عاد الملك الى عاصمة دولته . أدرك أن بقاء القائد البيزنطى تحت رعايته قد يكون فى مصلحته . نظرا للخصومة المستحكمة بين ملك الافرنج وامبراطور البيزنطيين ، فأغدق « أمورى » على « اندرونيكوس » المال والعطايا . واقطعه ولاية بيروت فى جبال لبنان . . .

لكن الرجل لم يكن ممن يحفظون الجميل ويقابلون العطف بالوفاء . فقد مر فى طريقه الى بيروت على مدينة عكا حيث وقع نظره على صاحبة ذلك الموقع الحصين ، الاميرة « تيودورا » البيزنطية ؛ أرملة ملك أورشليم السابق « بلدوين الثالث » ، وهى مثل « فيليبا » جميلة ساحرة ، لم تتجاوز الثانية والعشرين من العمر .

زارها « أندرونيكوس » مرة أخرى فى مقر امارتها ، وردت له « تيودورا » الزيارة فى بيروت ، حيث كاشفها بحبه .

ومثلت على مسرح بيروت الرواية التى أسدل الستار على آخر فصولها فى انطاكية قبل ذلك ببضعة شهور .

ونفد صبر الامبراطور فقرر الالتجاء الى العنف مع ابن عمه الذى الحقت أعماله العار بالأسرة المالكة ، فأصدر أوامره الى زبانيته بأن يأتوه بأندرونيكوس حيا ، بعد أن يفقئوا عينيه !

وكتب أمبراطور بيزنطة الى ملك الافرنج يطلب منه طرد ابن عمه

من اراضيه ، ولم يشأ « أموري » أن يثير بينه وبين جاره القوى حربا من أجل ذلك ، فأرسل يدعو «أندرونيكوس» الى الرحيل من تلقاء نفسه .

وخرج أمير بيروت من قصره ، بعد ان تخلى عن الامارة ، وخرجت في اثره « تيودورا » أميرة عكاء . والتقى الاثنان فى سهل البقاع ، وواصلا السير الى دمشق حيث نزلا على صاحبها « نور الدين محمود » وطلبا حمايته ، فأجارهما هذا الأمير عملا بتقاليد الضيافة الشرقية .

ولكنهما لم يمكثا طويلا فى دمشق ، فذهبا الى « حران » وهى أيضا من أملاك « نور الدين » ، وهناك وضعت « تيودورا » طفلا حملته معها الى بغداد ، حيث استجار الهاربان بالخليفة « يوسف المستنجد بالله » العباسي ..

وظل « اندرونيكوس » و « تيودورا » يتنقلان من امارة الى امارة ، ومن حصن الى حصن ، بين بغداد وماردين وارضروم ، فكان الأمراء المسلمون يفتحون لهما أبواب قصورهم ويضيفونهما اياما او اسابيع ، ثم يفهمونهما ان بقاءهما فى أرضهم غير مرغوب فيه ، لأن الامبراطور « مانوئيل كومنين » واسع السلطة طويل الباع علاوة على انه صديق وليس عدوا ولا يرغب أحد من اولئك الأمراء فى معاداته اكراما لقائد من قواده ، وتسترا على من خرجا على الاهل والتقاليد .

ضاقت الدنيا فى وجه « أندرونيكوس » وسدت فى طريقه سبل الهرب وموارد الرزق ، فانقلب الى لص سفاح ، وجعل يسطو على المارة فى الطريق المؤدية الى حدود الامبراطورية ، بل جمع حوله عصابة من قطاع الطرق ، وراح يشن الغارة تلو الغارة على المزارع التى وراء تلك الحدود ، وينهب محتوياتها ويسلب سكانها فكتب الامبراطور الى حاكم طرابزون . « نيكفوروس باليولوغوس » يقول : « اما رأسه واما رأسك اما أن ترسله الى مكبلا بالسلاسل ، واما أن تكبل بها نفسك وتأتينى صاغرا ذليلا ! فالحاكم الذى يعجز عن القضاء على لص ، قاطع طريق ، ليس جديرا بالبقاء فى منصبه ! » .

تلقى « نيكفوروس » هذه الرسالة الملكية فكانت له بمثابة صفعة ادمت كرامته . وأقسم الا يذوق الراحة قبل أن يغسل عارها بالقبض على القائد المتمرد . وكان يعلم ان دون هذه الأمنية أهوالا ومصاعب ...

ولكنه وضع خطة ضمنت له النجاح ، وبدل ان يطارد «اندورنيكوس» ورجاله ، أقام كمينا للاميرة العاشقة « تيودورا » ، ونجح الكمين فعاد اليه رجاله يسوقون أمامهم المرأة موثقة اليدين !

وكتب حاكم طرابزون الى الامبراطور يقول : « اننى ابعث اليك الآن بالمرأة حية . وسأتبعها قريبا الرجل حيا ايضا !

وعلم « أندرونيكوس » بما حدث فضاع رشده !

انه لا يملك قوة كافية لمواجهة طرابزون وانقاذ عشيقته ، او ارغام ابن عمه على الصفح عنها وعنه ، فما العمل ؟

انه شريد طريد . يتهرب منه الناس لانهم يخشون بطش الامبراطور ويسد الأمراء والحكام دونه أبوابهم محافظة على ما بينهم وبين العاهل البيزنطى من علاقات طيبة . وهو يفتقر فى آن واحد الى المال والرجال والسلاح .

فالامبراطور هو الغالب : أن لم يكن اليوم فغدا او بعد غد !

اذن ، علام العناد والاسترسال فى الغواية والتشرد والعصيان ؟

تصفح «أندرونيكوس» حياته ، فاذا بها مزيج من العظمة والانحطاط ، من المجد والبؤس ، من الشرف والعار .

واخذ رأسه بين يديه ، واصغى الى دقات قلبه ، وادرك ما لم يكن يعلمه من قبل : انه يحب ! لقد لعب بالحب فى سابق الايام ولكنه الآن فريسة ذلك الحب ! لقد غرر بنساء الامبراطورية الجميلات ، وخدعهن وجعلهن فى يده دمى للتسلية واللهو والتمتع بالملاذ . . .ولكنه اليوم ينقلب ضحية بعد أن كانت النساء ضحاياه .

وبدافع نفسانى ذهب«اندرونيكوس كومينين» الى قصر «نيكفوروس باليولوغوس » حاكم طرابزون ، ورفع خوذته الفولاذية ، والقى بها على الأرض أمام غريمه ، وأعلن خضوعه واستسلامه ، تاركا لابن عمه الامبراطور « مانوئيل كومينين » أن يفعل به ما يشاء على شرط الا يفرق بينه وبين المرأة التى أحب !

وامر الامبراطور بأن يطرح الأسير فى غياهب السجون !



السلطان عثمان الغازي مؤسس الدولة العثمانية



من حفر حفرة لأخيه ، قد يقع فيها ! ومن كـاد لجاره قد يرتد الكيد الى نحــره ! ..

فى أواخر القرن السابع للهجرة الموافق للقرن الثالث عشر للميلاد سارت دولة السلجوقيين الترك الى الانحلال باطراد ، وتقاسم أملاك الدولة ومرافقها أمراء من اتباع السلاطين . فجعلوا يستقلون الواحد بعد الآخر بالمقاطعات الجبلية والقلاع الحصينة . على حين كان أمراء من الروم الشرقيين يفعلون مثلهم ، من ناحية أخرى ، فيستقلون بالمقاطعات والقلاع التابعة للدولة البيزنطية : هؤلاء فى شمالى الأناضول وغربيه ، وأولئك فى جنوبيه وشرقيه .

وفى سنة ١٢٨١ للميلاد ، — الموافقة لسنة ٦٧٩ للهجرة — تولى « عثمان خان » ، ابن « أرطغرول خان » ، قيادة فريق من القبائل التركية ، خلفا لأبيه الذى اقعدته الشيخوخة ، وجعل يتلمس مواضع الضعف عند جيرانه ، سواء اكانوا من المسلمين الشرقيين أم من الروم المسيحيين ، ليوسع أطراف امارته على حسابهم . وقد واتاه حظه ، وساعده نبوغه ، فكتب له أن يكون مؤسس دولة ومنشىء أمة . وأن يطلق اسمه على الأمة وعلى الدولة معا ، فتعرف سلالته ويعرف قومه باسم « بنى عثمان » أو « العثمانيين » .

وكان لعثمان بن ارطغرول جار رومى يدعى « كيبى ميخالى » وقد توثقت عرى الألفة والصداقة بين الجارين ، فتحولت الى محالفة عقدت بينهما ، فأقسم كل منهما يمين الوفاء والاخلاص للآخر ، واتفقا على ترحيد جهودهما ومساعيهما للاستيلاء على أملاك جيرانهما الآخرين . وما مرت بضعة أعوام على ذلك الحلف الوثيق ، حتى اعتنق « كيبى ميخالى » الدين الاسلامى وانضم الى جماعة صديقه وعرف منذ ذلك الوقت باسم « ميخالو غلى » وهو جد أسرة قامت فى فجر التاريخ العثمانى بدور كبير وظل أبناؤها يشغلون أرفع المناصب فى عهد السلاطين لبضعة أجيال .

وكان لعثمان بن أرطغرول صديق آخر من الامراء الروم يحتل قلعة « بيلوكوما » — أو بلدجك — ووثق به عثمان الى حد أنه كان يأتمنه على أسراره ، ويودع عنده أمواله وكنوزه كلما خرج على رأس قومه الى الحرب والغزو .

ولكن بقية الأمراء والاقطاعيين كانوا ينظرون الى عثمان وصديقيه بعين القلق والحسد ، ويخشون بطشهم ويحتاطون لكبح جماحهم . ومن بين هؤلاء صاحب قلعة « انجلوكوما » الرومى ، الذى جعل يسطو على القبائل التركية ويسوق أمامه مواشيها ويقطع الطريق على الآمنين من زراعيها ورعاتها . حتى عول « عثمان » على الاقتصاص منه ، وشد أزره صديقاه فنشبت معركة اولى بين الفريقين ، فى الطريق المؤدية من كوتاهية الى بورصة ، فى سنة ١٢٨٥ ميلادية ، الموافقة لسنة ٦٨٤ للهجرة ، تبعتها معركة ثانية على مقربة من « اجلوكوما » نفسها ، وأسفرت المعركتان عن فوز عثمان وقومه . فاستولوا على بضعة حصون ، منها حصن « قره حصار » الذى اتخذه عثمان منذ ذلك الوقت مقرا له ولذريته من بعده . .

ومات « ارطغرول » فى سنة ١٢٨٨ ميلادية الموافقة لسنة ٦٨٧ للهجرة . هادىء البال مطمئنا على مستقبل أمته . تاركا لابنه عثمان مهمة تأدية الرسالة الى نهايتها . وقرر الابن أن يحمل لقبا جديدا ، رمزا لسلطته وعنوانا لاستقلاله . فاختار لنفسه لقب « بادشاه » وأصبح يعرف بسلطان العثمانيين .

***

ظلت أسرة ميخالوغلى على ولائها للسلطان وقرنت مصيرها بمصيره . ولكن الصديق الثانى . صاحب بلدجك . لم يبق من ناحيته مخلصا وفيا . فقد داخله الحسد من الأمير التركى الذى لم تعد مطامعه تقف عند حد . فتشاور الرومى مع بنى قومه ، وتآمروا جميعا على الأمة العثمانية الناشئة وزعيمها الطموح . واشترك فى تلك المؤامرة سبعة من الأمراء وأصحاب القلاع من الروم ، وتولى وضع الخطة وادارة دفة تنفيذها صاحب بلدجك ، الصديق الخائن ، وصاحب انجلوكوما ، العدو القديم المهزوم : هذا لطلب الثأر ، وذاك لارواء حسده . وقد يكون الصديق الحسود أحيانا أشد خطرا من العدو الحاقد !

واقبل على أسوار « قره حصار » ذات يوم رسول من صاحب قلعة « يار حصار » — وهو أحد المتآمرين — حاملا الى البادشاه دعوة من سيده ، يقول فيها : « لقد عولنا باذن الله على عقد قراننا بعد أسبوعين ، ووقع اختيارنا على ابنة جاركم وحليفكم صاحب بلدجك . فهل للبادشاه أن يشرف قلعتنا بزيارته ، ويشاركنا فى أفراحنا ، أن فى هذا لمنتهى السعادة لنا ، ولفالا حسنا للعروسين ! »

قبل « عثمان » الدعوة شاكرا . وأوفد من ناحيته رسولا الى صديقه « كيسي ميخالو غلى » . فأسرع هذا الصديق اليه واطلعه على السر الذى كان عثمان يجهله . والذى عرفه الرومى من صنائعه وجواسيسه المنبثين فى قلاع الأناضول وحصونه .

قال كيسي ميخالوغلى لعثمان :

— لا شك عندى فى أن القوم يتآمرون عليك . ولا شك عندى فى انهم عازمون على الايقاع بك والتخلص منك غدرا . بعد ان ثبت لديهم أنهم عاجزون عن منازلتك وقهرك فى الميادين . فاحذر أيها الصديق ولا تغرنك الظواهر ، فالبواطن غير ماترى وغير ما تسمع ! .

ووضع الصديقان معا خطة معاكسة . لاحباط المؤامرة ورد كيد الكائدين الى نحورهم .

وارسل « عثمان بن ارطغرول » الى جاره صاحب بلدجك يقول . « لقد قررت ان البى الدعوة التى وجهها الى صهرك المقبل صاحب يار حصار ، مغتبطا بهذه الفرصة السانحة لأعبر لك عن سرورى بزواج ابنتك التى اعرفها واقر انها تحاكى القمر بهاء والشمس ضياء . وانا وقومى نتمنى للعروسين الهناء كله فى مستقبل الأيام . ولكننى عازم على الخروج بعد ذلك الى رحلة طويلة ، فأستأذنك أيها الصديق الكريم — شأنى معك اليوم كشأنى معك بالامس — فى أن اترك أموالى وكنوزى امانة فى عنقك ، ووديعة فى حصنك . وسأرسل اليك ذلك كله مع جماعة من النساء ، يحملنه الى بلدجك قبل حفلة العرس بيوم واحد . والى اللقاء عند صهرك العزيز فى يار حصار أن شاء الله ! » .

وفى اليوم المحدود وصلت الى قلعة بلدجك قافلة من البغال والخيول المحملة بالاثقال ، تقودها أربعون امراة من نساء العثمانيين ، جميعهن مبرقعات متسربلات بأثوابهن السوداء . ففتحت لهن ابواب القلعة ، وخصصت لهن فيها القاعات الفسيحة ، فأقمن فيها بجانب الصناديق والأكياس الحاوية كل ما يملك عثمان من مال وجواهر واسلحة مرصعة واقمشة مزخرفة وتحف ثمينة .

وفى اليوم التالى ، خرج صاحب بلدجك من قلعته فى موكب تتوسطه العروس ابنته وقد امتطت صهوة جواد أصيل . واتجه الموكب الى سهل منبسط بجوار القلعة ، حيث اعدت العدة لاقامة حفلة العرس . فنصبت الخيام وعلقت المصابيح فى الاشجار ونحرت الذبائح ومدت الموائد . وحيث كان مقررا أن يصل العريس بموكبه فى اليوم ذاته .

وما كاد موكب العروس يبتعد عن القلعة حتى عـــلا من داخلها الصياح ، واندلعت فى جوانبها السنة النيران ، وانعقد فوقها الدخـــان كالسحاب !

لم تكن النسـاء اللواتى حملن وديعة عثمان الى قلعة بلدجك غير فريق من الرجال الاقوياء الاشداء ، تنكروا وراء البراقع والجلاليب السوداء ، ثم اغتنموا فرصة خلو القلعة من حماتها فانقضوا على الخدم واوثقـــوهم واضرموا النار فى جوانب القلعة وتم لهم الاستيلاء عليها قبل أن يصحو صاحبها ورجاله من دهشتهم ! حتى اذا ما كروا عائدين الى القلعة للدفاع عنها ، داهمهم رجال عثمان المنبثون فى الطريق ، المتربصون بين الصخور والاشجار ، ففتكوا بهم فتكا ذريعا ، على حين كان عثمان نفسه ، على رأس قوة أخرى من فرسانه ، يفاجىء العريس القادم الى السهل ، ويقطع رأسه بيده ، ويشتت موكبه فى الجبال والحقول !

أما العروس فقد وقعت فى قبضة « كبسي ميخالوغلى » وجماعته ، فاقتادوها أمامهم الى البادشاه . . .

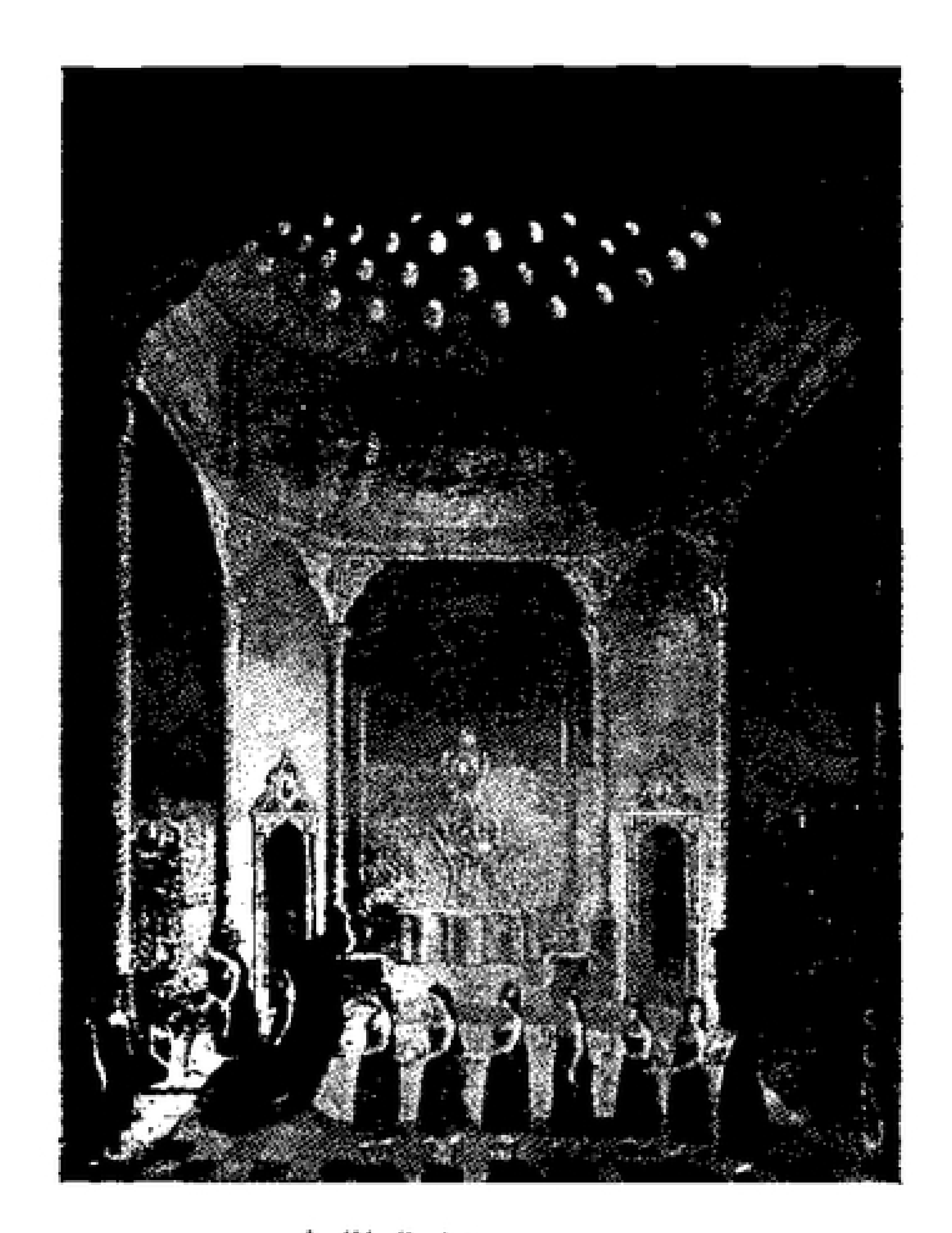
***

وقعت قلعة « بلدجك » فى يد عثمان وأسر صاحبها الخائن . ووقعت فى يده أيضا قلعة « يار حصار » بعد مصرع صاحبها الغادر . فضـــم عثمان القلعتين الى املاكه ، واتسعت بهذا الضم حدود سلطنته . .

اما العروس السبية ، فقد احاطها البادشاه بالاكرام والاجلال ، واحلها ضيفة عليه فى حصن قره حصار . وعوض عليها ما حل بها من شقاء بأن اعدها زوجة لابنه الثانى . الذى اعده ليرث الملك من بعده ، دون اخيه الاكبر .

تلك هى « السلطانة نيلوفر »زوجة السلطان أرخان ، وأم السلطان مراد الاول . وقد جلست على عرش آل عثمان مع زوجها أرخان ، بعد وفاة السلطان عثمان سنة ١٣٢٦ للميلاد الموافقة لسنة ٧٢٦ للهجرة ــ بالغا من العمر سبعة وستين عاما .

اما اورخان،فقد تولى السلطنة بعد أبيه وهو فى الخامسة والأربعين، وملك أربعة وثلاثين عاما ، ومات سنة ١٣٦٠. وهو الذى أنشـــأ فرقة « الانكشارية » الشهيرة ، وقد كانت له زوجته الرومية نيلوفر خير مرشدة وخير رفيقة .



حمام السلطان !



كان عليها أن تختار بين تأييد زوجها السلطان ، أو والدها الامبراطور ، فآثرت الزوج على الأب !

قبائل الترك العثمانيين تتاهب فى ذلك الوقت لاجتياز المضـــايق والانقضاض على ممتلكات الامبراطورية الرومانية الشرقية فى اوربا . ولكن هذا الخطر الداهم لم يحمل الروم المتناحرين المتخاذلين على نبذ خصوماتهم ، وتوحيد كلمتهم . وجمع صفوفهم . لصد الغارة الآسيوية عن امبراطوريتهم المتفككة الاوصال . بل راح بعضهم يخطب ود ذلك العـدو المشترك ، ويتحالف معه على بنى قومه ؛ فساعد ذلك الانقسام بين طوائف الروم واحزابهم على بسط سلطان العثمانيين وتوسيع رقعتهم

ففى سنة ١٣٢٦ للميلاد ــ الموافقة لسنة ٧٢٦ للهجرة ــ تم استيلاء الامير « ارخـــان » العثمانى على مدينة « بروســـة » . ممات ابوه « عثمان » فى السنة ذاتها قرير العين ، ودفن فى هذه المدينة العظيمة بعد ان جعلها عاصمة لملكه ومقرا لعرشه

وخلفه فى حكم العثمانيين ابنه « ارخان » . وهو فى السادســـة والاربعين من العمر . فواصل فتوح ابيه ، وكان أول من وطئت قدماه ارض أوربا من قواد الامة الفتية الغازية

***

تطلع « أرخان » الى امبراطورية الروم فألفاها طعمة للفوضى والحرب الاهلية والفسق والفجور . وجعل يرسم خطة بعيدة المدى لاستغلال هذه الحالة . وساعدته الظروف وخدمته المصادفات الى ابعد مما كان يأمل وينتظر . فبعد أن تطاحن الروم فيما بينهم بضعة اعوام ، آل عرش دولتهم الى الامبراطور الفتى « جان باليولوغوس » وتولى الوصـــاية على ذلك الامبراطور كبير أمناء القصر « جان كنتاكوزين » أدهى دهاة عصره ؛ وأغنى الاغنياء فى ذلك العهد ، اذ كان يملك مزارع واسعة لا عداد لها ، عليها أربعة آلاف ثور ، وثلاثة آلاف فرس ، وخمسمائة بغل . وثلثمائة جمل ، وخمسة آلاف بقرة حلوب ، وخمسون الف خنزير ، وسبعون الف راس من الغنم ، وعشرات الآلاف من الطيور !

ودب الحسد فى قلب الامبراطورة الوالدة « آن دى سافوا » من ذلك الثرى القوى الذى سلبها سلطانها على ابنها ، فحاولت ان تنتزع منه

الوصاية على العرش ، وكان ذلك سببا لاثارة نقمته . وقيام فكرة خلع الامبراطور فى راسه . وتحولت الفكرة الى رغبة ، والرغبة الى عزم عول الرجل على المضي فيه . فتآمر على العرش وتأهب لوضع التاج على راسه .

وشطرت الامبراطورية الى شطرين ، وانقسم الشـعب الى فريقين !

***

واسرعت « آن دى سافوا » ام الامبراطور « باليولونجوس » القاصر الى طلب المعونة من « أرخان » سلطان العثمانيين ، فوعدها بأن يشد أزر ابنها ضد كبير أمنائه مغتصب العرش منه . ولكن ، قبل أن تتحقق امنية الامبراطورة الوالدة ، كان « كنتاكوزين » من ناحيته قد أسرع ايضا الى « ارخان » ، وعرض عليه محالفة بين العثمانيين والفريق المناصر له من الروم ، ووضع بين يديه كومة من الاكياس المملوءة ذهبا ، ثم اشار الى احد اتباعه — وكان ملثما — وقال للسلطان العثمانى . « وقد جئتك ايها السيد المطاع والقائد المغوار والجار الكريم بدليل ملموس يثبت لك حسن نيتي ، وصدق اخلاصي . ورغبتي الاكيدة فى أن تكون هذه المحالفة التى أعرضها عليك ، رباطا وثيقا بيننا ، لاتنفصم عراه الايام مهما تحمل فى طياتها من حوادث جسام ! »

وتطلع السلطان الى الملثم فاذا بالخمار يسقط وينحسر عن وجه نير يحاكى البدر بهاء والصباح سناء . واذا بالملثم فتاة لم تقع عين السلطان من قبل على أجمل منها ، ولم يتخيل قامة ممشوقة مثل قامتها ، ونظرات ساحرة مثل نظراتها ! وتكلمت الحسناء بصوت لم تطرق مسامع السلطان من قبل رنة أرق من رنته وأعذب وقعا منها وقالت :

— ايكفيك الدليل على حسن نية أبى أيها المولى المجيد ؟

وصاح « ارخان » وقد لمعت عيناه وانفرجت شفتاه عن ابتسـامة تنم عن الرضي والسرور :

— يكفيني الدليل ! .. وانني أبسـط يدى الى الفريق المناصر لكنتاكوزين ، وأتعهد له بأن اضع ابنائى وفرسانى فى خدمة الهدف الذى أصبح الآن مشتركا بيننا !

وخاطب « كنتاكوزين » ابنته قائلا :

ـ تيودورا ... انت يا ابنتى منذ هذه الساعة ملك لصـــديقى وحليفى ارخان سلطان العثمانيين ، عسى الله أن يجعلك ســـعيدة فى كنفه ، وأن يحقق له ما يصبو اليه من آمال وأمانى واغراض !

***

تغلب دهاء الرجل على مكر المرأة . وبدل أن يصغى « ارخان » الى نداء الامبراطورة الوالدة « آن دى سافوا » ويحالف ابنها ويساعده على الاحتفاظ بعرشه . آثر الاصغاء الى نداء عدوها « جان كنتاكوزين » وحالفه وتعهد بأن يساعده على اغتصاب العرش من « باليولوغوس » الشـــاب . ودعا « ارخان » ولديه وقائدى جيشـــه « ســليمان » و « مراد » ، وأطلعهما على ملتم الاتفاق عليه بينه وبين الرومى المغتصبه وقال فى ختام حديثه :

ـ لقد فعلت هذا لا حبا لحليفنا الجديد ولا كرها لعدوه . بل لأن فيه مصلحة قومنا من جميع الوجوه : فالرجل ثائر على مليكه وفى هذا ما يزيد امبراطورية الروم ضعفا وتفككا ، ويفسح لنا مجال التقدم والتوسع على حسابها . وقد دفع لنا هذا الحليف الذى لم يكن فى الحسبان ما يكفى من المال لسد حاجاتنا منه لبضعة أعوام ، فضلا عن المصاهرة التى جاءت بمثابة توقيع على صك التحالف ، فأصبحت ابنته تيودورا زوجة لى . يعيدنى شبابها الى عهد الشباب ، وتبعث نضارتها بعض الحرارة فى عروقى !

فقال سليمان ومراد :

ـ حسنا فعلت ! ونحن فى انتظار أوامرك للسير الى حيث تريد ، تأييدا لحليفنا الجديد ، وصهرنا العتيد !

***

كان ذلك الحادث أول حادث من نوعه بين الروم والترك . فان « تيودورا » ابنة « جان كنتاكوزين » أول فتاة رومية تزوجهـــا ســـلطان عثمانى . وقد تم ذلك الزواج فى سنة ١٣٤٠ للميلاد ـ الموافقة لســـنة ٧٤١ للهجرة . وكان السلطان « ارخان » فى الستين من العمر .

كان « كنتاكوزين » ، بعد زيارته الأولى السلطان ، قد عاد الى ضفة المضيق الاوربية ، تصحبه ابنته ملثمة كما جاءت معه الى الضفة الآسيوية. على أن يبعث « ارخان » بعد أسبوع من ذلك اليوم . وفدا من قبله يجىء بالعروس الى زوجها فى موكب لائق بها ـ واستقبل الروم وفد السلطان

فى خيام من الدمقس والحرير ، ورحب به « كنتاكوزين » وزوجته«ايرينا» وعاد الوفد من حيث اتى ، ومعه السلطانة الرومية الجديدة « تيودورا » ، وهدايا لا تعد ولا تحصي ، وخمسمائة من العبيد والجوارى ، وبضع عشرات من الخصيان اختارهم « كنتاكوزين » بنفسه . ومنذ ذلك الوقت أخذ الترك عن الروم عادة اقتناء الخصيان فى قصورهم ، ولم تكن هذه العادة قد انتشرت بينهم من قبل !

وفى السنة التالية ، كان « كنتاكوزين » قد تمكن من السلطة وتبوأ عرش القياصرة فى بيزنطة ، بفضل المساعدة التى تلقاها من زوج ابنته السلطان العثمانى . واحتفظ هذا الامبراطور بالتاج ثلاث عشرة سنة ، كانت مفعمة بجلائل الاعمال ، فى ميادين السياسة والحرب والعلم والادب . فقد جمع « جان كنتاكوزين » فى شخصه الداهية السياسي ، والقائد المحنك ، والعالم المطلع ، والاديب الحصيف ، وله مؤلفات فى التاريخ واللاهوت والمقارنة بين الاديان وتحليل النظريات الفلسفية عند الاقدمين ، كما أن له قصائد من الشعر الرائع فى وصف الطبيعة والتغنى بمحاسنها .

كان للسلطان « ارخان » ولدان آخران غير مراد وسليمان . ولم يحدث في السنوات العشرين التى قضتها « تيودورا » في كنف زوجها العثمانى أن نشب خلاف بينها وبين أحد من الابناء أو من رجال الحاشية أو من نساء الحريم السلطانى . فقد عاشت هذه الاميرة الرومية فى ذلك الوسط الغريب عنها ، وذلك الجو المختلف عن الجو الذى نشأت فيه عند قومها ، فى وئام مع الجميع . فأحبتها النساء بقدر ما احترمها الرجال . وظلت وفية لزوجها ، محافظة على العهود التى قطعتها له ، وظل «ارخان» من ناحيته ايضا محافظا على ما قطعه نحو زوجته الغريبة من عهود .

فقد أرادت « تيودورا » منذ اليوم الذى انتقلت فيه من قصر ابيها الى مدينة بروسة ، أن تقطع دابر كل خلاف ، وترسم لنفسها ولزوجها خطة يسير عليها الاثنان وينفذانها بأمانة واخلاص ..

قالت لأرخان : « لى رجاء أود أن افضي به الى مولاى ان سمح بذلك ، بل لى اكثر من رجاء واحد » .

فأجاب ارخان : « أن كل رجاء تعبرين عنه يا تيودورا لهو بمثابة أمر تصدرينه فيصبح فى الحال نافذا . تكلمى ، وارخان يصغى ويحقق لك ماتريدين ! » .

ـــ أود البقاء على دين آبائى واجدادى !

ـــ ستبقين على دينك ولن أحاول اكراهك على الجحود به !

ـــ وأود لو سمح مولاى بأن يقيم في المدينة وعلى مقربة من القصر ، راهب رومى اشرف على تربيتى الدينية منذ نعـــــومة أظفارى ، يدعى جاورجيوس .

ـــ سنعطى جاورجيوس بيتا يقيم فيه على مقربة من القصر . ولك ان تقابليه متى شئت .

ـــ وأود أن يأذن لى مولاى بالذهاب الى والدى ، فى بيزنطة ، لزيارتهما ، والسؤال عنهما ، والتزود ببركتهما ، مرة فى كل عام .

ـــ بل مرة فى كل شهر اذا اردت !

تلك هى بعض الشروط التى تم الاتفاق عليها بين أرخان وزوجته ، والتى لم يخل بها أحد الطرفين خلال عشرين عاما .

وقد نشأ فيما بعد خلاف بين السلطان العثمانى والامبراطور والد زوجته ، فانحازت تيودورا الى زوجها السلطان وحاولت أن تعيد المياه الى مجاريها بين العاهلين ففشلت . وظلت فى خلال تلك المدة المضطربة تزور والديها وتعود الى زوجها ، بدون أن تخامرها فكرة الهرب او البقاء فى بيزنطة بين أهلها وقومها .

وفى سنة ١٣٥٤ ، لم يعد فى وسع كنتاكوزين الاحتفاظ بالعرش ، بسبب ما اكتنفه من ثورات ، وما أريق حوله من دماء ، وما قاســـــاه ذلك الامبراطور العظيم من متاعب واهوال ، فتزل عن الملك لابنه الثائر عليه ، واعتزل الحياة فى دير مع زوجته الامبراطورة ايرينا ، وقضى بقية عمره الطويل منصرفا الى التقشف والعبادة ، ومات فى سنة ١٣٨٠ للميلاد .

أما ارخان ، فقد حزن حزنا شديدا على مصرع ابنه سليمان الذى قتل فى الصيد ، فأثر ذلك فى صحته ، وعجل موته ، ففاضت روحه فى الثمانين من العمر . وكانت كلماته الاخيرة موجهة الى زوجته المحبوبة تيودورا ، التى لفظ أنفاسه الاخيرة متكئا على صدرها .

وخلفه على عرش آل عثمان السلطان مراد الاول وهو ابنه الثانى من زوجته نيلوفر . أما تيودورا ، فانها لم ترزق منه أبناء ، وقد احتجبت عن الأنظار بعد موت زوجها ، وظل السلطان مراد الاول يحوطها بالاكرام والاجلال ويستشيرها فى كثير من الشئون ، ويغلب على الظن انها ماتت قبل أبيها الامبراطور الراهب ، وأمها الامبراطورة الراهبة .



تحققت الرؤيا ، فانتصر
السلطان في المعركة ، ولكنه
لم ينعم بلذة انتصاره !



رسم قديم لمدينة ادرنة ، او ادريانوبولس ، او اندريانوبل : كانت عاصمة الدولة العثمانية قبل سـقوط القسطنطينية واطلاق اسم استامبول عليها ..

الشمس وراء الهضاب المتتابعة الرابضة تجاه البحر ، كقطع من الخراف الهائلة تجمدت فى مكانها ، وفى الوقت نفسه أطل الفارسان من أعلى هضبة منها على مدينة ادريانوبولس ـ القابعة على الشاطىء فى حماية أسوارها المنيعة . والتفت أحد الفارسين الى رفيقه وقال مستبشرا مسرورا :

ــ الحمد لله ! لقد بلغنا نهاية رحلتنا الشاقة بلا عناء . وكنت أخشى أن يدركنا الظلام قبل أن نصل الى المدينة ، فنضطر الى قضاء الليل فى هذا الوعر الموحش ، الحمد لله !

فأجاب الفارس الآخر بصوت ناعم :

ــ ان الله يستجيب دعاءك دائما يا أبى ، لانك من أوليائه الصالحين !

ــ سننزل فى بادىء الامر ضيفين على مولانا السلطان ، الذى أرسل يستقدمنى من بروصة ، ثم نبحث عن بيت نقيم فيه .

ــ الا اذا أراد السلطان أن تصحبه فى غزواته وفتوحه .

ــ سنفعل ما يأمرنى به ، فهو ولى نعمتى ، وقد وضع فى ثقته الغالية ، بما أثار على حسد الكثيرين من رفاقى واخوانى .

ــ وأنت جدير بهذه الثقة يا أبى ! فكم من مرة أبعدت الخطر عن السلطان بصلواتك ، وكم من مرة حذرته الاقدام على عمل أو الاحجام عن آخر ، بما قرأته له فى صحائف الغيب ، وكم من مرة كان تفسيرك لحلم أو لرؤيا ، مدعاة للدهشة والاعجاب ، بما كان يتبعه من سير الحوادث وفاقا لما ذهبت اليه من تفسير .

ــ هذا صحيح يانعمة ، وأرجو أن يوفقنى الله دائما ويشملنى برعايته .

كان الفارس الآخر قد نزع العمامة التى لف بها رأسه وأسدل طرفها على جزء من وجهه ، فانطلقت شعور شقراء كثيفة من عقالها

وتدفقت على كتفيه ، فجعل نسيم البحر يداعبها ويعبث بها بلا ورع ولا وجل !

هذا الفارس امرأة فى العقد الثالث من عمرها . ورفيقها شـــيخ جاوز الستين .

هو من بلاد العرب . وهى من بلاد الصرب ، والاثنان فى طريقهما الى ادريانوبولس ، المدينة التى نقل اليها السلطان العثمانى مراد الاول مقره ، واتخذها عاصمة جديدة لملكه . وأطلق عليها اسم « أدرنة » .

فما الذى جمع بين العربى والصربية فى ارض تركية ؟

***

كان « ابراهيم البصرى » فى شبابه مغامرا شديد الميل الى اقتحام المخاطر وركوب الاهوال ، وقد رحل عن موطنه « البصرة » وطاف فى الامارات والاقاليم المتناثرة حول البقية الباقية من الامبراطورية البيزنطية ، وحط فى النهاية رحاله فى مدينة « بروصة » عاصمة السلطان اورخان ، حيث انصرف الى أعمال البر والتقوى . وزهد فى الدنيا وعدل عن المغامرة . فذاع صيته بين الناس ، وأحب العثمانيون — وعلى الخصوص الجنود منهم — ذلك العربى الذى يجيد قراءة الكف واستطلاع الغيب وتفسير الاحلام واسداء النصائح والارشادات فى كل شأن من شــــئون الدين والدنيا ..

وتزوج ابراهيم البصرى امرأة تركية رزق منها ولدين ما شـــبا عن الطوق حتى التحقا بفرقة من فرق الفرسان ، لأخذ نصيبهما من المعارك التى كان العثمانيون يخوضون غمارها بلا انقطاع ...

وكان مراد الاول قد اعتلى العرش فى سنة ١٣٦٠ للميلاد — الموافقة لسنة ٧٦١ للهجرة — واستأنف الحرب حيث تركها ابوه أورخان ، وواصل الغزو والفتح ، فاستولى على ادريانوبولس وشيد فيها قصرا فخما ، وشيد تجاه القصر مسجداً يحمل اسمه ، واخمد فتنة اثارها احد ابنائه ، وأحرز سلسلة من الانتصارات على الامبراطور باليولوغوس البيزنطى ، وامراء صربيا وبلغاريا وغيرهما من الاقطار ، ولم يهمل الانشاءات العمرانية فى فترات السلم والهدوء ، فأحبه شعبه ، ورأى فيه خير خلف لخير سلف ، فى مطلع تاريخ الأمة العثمانية .

وفى أحدى المواقع التى خاض السلطان غمارها ضد الصربيين ،

وكتب فيها النصر لجيشه . عاد العثمانيون بأكوام من الاسلاب وعـــدد لايحصي من الاسرى والسبايا . وفى تلك المعركة . قتل سعد بن ابراهيم البصرى الاصغر ، ونجا مسعود الابن الاكبر ، ورجع الى ابيه ومعه من المال الشيء الكثير ، وفتاة صربية تحاكى البدر بهاء والغزال خفة ورشاقة. كانت الفتاة فى صحبة أخيها « سيميونفتش » الذى لم يحاول انقاذها من الوقوع فى الاسر ، بل آثر الفرار على الدفاع عنها ، ونجا بحياته تاركا حياة أخته تحت رحمة الاقدار . فحنقت الاخت على أخيها . وما وصلت الى بيت الجندى الذى سباها . ورات والده الملهف الى لقائه . وشاهدت بكاء ذلك الوالد على ابنه الآخر الذى سقط فى الميدان . حتى ركنت الى تلك الاسرة بالرغم من اختلاف البيئة والدين والعــــادات . واعتزمت الاستسلام لما كتب لها .

وأحاطها ابراهيم البصرى وابنه بالاكرام . ولم تمتد اليها أيديهما بسوء . بل فاتحها الشاب برغبته فى اتخاذها زوجة حليلة له . فقبلت الفتاة شاكرة ، وخيل اليها أن ما ظنته فاتحة بؤس وشـــقاء . سيكون فاتحة خير وهناء .

ولكن الزوج خرج ذات يوم الى الصيد . فهاجمه ذئب مسعور . وعضه فى ذراعه عضة أسفرت عن موته فى غمرة من الالم والعذاب . قبل أن ينقضي الشهر الثالث على زواجه !

وبقيت الصربية وحدها مع الوالد الحزين . فحاطها الرجل بكل ما فى صدره من عواطف النبل والشهامة ، واطلق عليها اسم « نعمة » قائلا : ان وجودها بالقرب منه وتحت سقف بيته نعمة من الله . لانه عز وجل قد أرسلها اليه كى لا يحرم فى وحشته صديقا يواسيه ، وعشيرا يسليه ، بعد مصرع سعد ومسعود !

وعاش الاثنان معا فى بروصة ، الوالد الحزين والزوجة الثكلى . هى تتولى شئون البيت ، وهو يتفرغ للعبادة ومحاولة تمزيق الحجب عن أسرار الغيب وما يخبئه الغد من حوادث ومفاجئات .

وكان السلطان مراد الأول يستدعيه الى قصره . كلما هبط العاصمة القديمة ، واحيانا يزوره بنفسه فى بيته الصغير . لطلب دعـــائه ، أو الاستنارة برايه . واشتد تعلق السلطان به ، وانعطف عليه ، فدعاه الى الرحيل عن بروصة والاقامة فى ادرنة . ولكن الشيخ العربى فضل البقاء فى المدينة التى عاش فيها ، لأن ذكرياته حية فيها . ولأن أرضها تضـــم

زفت ابنه البكر ، بعد ان عبثت وحوش البر وكواسر الجو بأشلاء ابنه الصغير في جبال البلقان .

وتوالت الأعمال الخارقة التي قام بها ابراهيم ، فعاد مراد الى الالحاح عليه بأن يغادر بروصة ويوافيه الى ادرنة ، ودعم الحاحه بالرجاء ، فلم يجد الشيخ العربي بدا من اجابة مولاه الى رغبته ، فوزع محتويات بيته على المعوزين ، وودع أصدقاءه ونحر الذبائح على قبر ولده ،وانطلق على صهوة جواده ، وبرفقته نعمة ، ووجهة الاثنين مدينة ادرنة .

وحل الشيخ وزوجة ابنه ضيفين على السلطان مراد الاول ، في قصره المشرف على البحر الاسود .

***

مرت فترة من الزمن خيم فيها السلم على ربوع الدولة الفائرة ، فواصل السلطان خلالها تنظيم شئون ملكه ، وانشاء فرق جديدة في جيشه اللجب ، وعقد المعاهدات مع جيرانه توطئة للقضاء عليهم الواحد بعد الآخر ، عندما تسنح الفرص .

وتكهن الشيخ العربي للسلطان بأنه سيستولى على عشرين مدينة من مدن الصرب والبلغار فاستولى عليها وبأنه سيبسط سلطانه على خمس امارات في اوربا وآسيا فتحقق التكهن . وقال السلطان للشيخ ذات يوم انه رأى في المنام غيمة حمراء تهبط على قصره . ففسر ابراهيم البصرى هذا الحلم بأنه الهام من السماء ليتخذ السلطان اللون الاحمر علما لأمته . فنفذ مراد النصيحة وجعل الاحمر لونا للعلم العثماني . وقرأ العـراف العربي في كف الامير بايزيد بن السلطان مراد ، ان الشاب سيقود الجند في معركة ينقض فيها كالصاعقة على العدو ويبيده بسرعة البرق . فحدث ماتوقعه ابراهيم ، وفتك بايزيد بجيش البلقانيين في معركة اطلق فيهـا عليه لقب « البرق » ــ بيلدريم ــ الذى ظل يلازمه طول حياته . .

***

وشعر البلقانيون بأن كيانهم مهدد ، فتحرشـوا بجيرانهم مرة أخرى ، وارسل السلطان خيرة قواده للاقتصاص منهم . ولكن الخطر تفاقم ، وما لبث مراد ان ادرك مدى ذلك الخطر،عندما بلغه ان أمير الصرب«لازاروس» قد جمع حوله حلفا من أمراء البوسنة والبانيا والهرسك وبلغاريا وهنغاريا وبولونيا وغيرهم ، وان المتحالفين يتأهبون للانقضاض على حدود السلطنة من كل صوب .

فعول مراد الاول على الذهاب لملاقاة العدو قبل أن يترك له فرصة لاستكمال التأهب . وزحف الى الامام ، نحو سهول « كاسوفا » حيث كان لازاروس وحلفاؤه يجمعون جموعهم .

وبات الناس فى ادرنة يرقبون الاخبار ويدعون لجنودهم بالنصر .

وفى ذلك الظرف العصيب . وفى احدى الليالى المظلمة . حيث كان الحراس ينتظرون باستمرار وصول الرسل الواحد بعد الآخر حاملين أنباء الزحف ، وفى البيت الصغير الذى كان ابراهيم البصرى يقيم فيه مع نعمة زوجة ابنه ، وقفت المرأة فى النافذة ، امام الافق البعيد . تسبح فى افكارها ، تاركة الشيخ التقى الورع ، من ناحيته . يسبح فى تأملاته ، ودعواته ، وصلواته .

وغلبها النعاس فاغمضت عينيها . ثم خيل اليها انها بين الحلم واليقظة . وان شيئا يلمع أمام عينيها ، هناك فى الافق البعيد الذى كانت تشخص اليه بالبصر ، من خلال النافذة . ؟

ـ ابى ! ابى ! تعال . تعال .

ـ ما بك يا نعمة ؟ أخائفة انت ؟

وجلست المرأة القرفصاء وقد عرتها الرعشة وعلاها الشحوب :

ـ ابى ، ابى . لقد رأيت حلما ، لا . . ليس حلما . بل رؤيا ، نعم ، لم اكن بعد قد استغرقت فى النوم ، ولكننى لم اكن مستيقظة . كنت بين الحالتين . فرأيت هناك ، فى الافق ، خنجرا هائل الحجم يلمع فى الظلام ، ثم يتحرك . ثم يقترب زاحفا فوق الامواج . وكلما زاد اقترابه . صغر حجمه بدل أن يكبر . ودخل الخنجر الى القصر من النافذة ، من نافذة مولانا السلطان ، واستقر على قدميه !

سكتت الفتاة ولكنها ظلت تلهث وترتعش . فربت الشيخ على كتفها ، وقال بلهجة ملؤها الحنان :

ـ لا تجزعى ! فما الداعى الى الجزع ؟ انها رؤيا . سنحاول أن نجد لها تفسيرا ، كما وجدنا لغيرها من قبل . . وسنحول ما فيها من نذير ، لمصلحة سيدنا مراد الاول ، الذاهب فى هذه الساعة الى القتال !

***

فى سهل كاسوفا ، وقف السلطان مراد الاول بين رجال حاشيته

وقواد جيشه ، يلقى نظرة شاملة على ذلك المكان الذى اختاره الحلفاء البلقانيون مسرحا لمعركة الغد ، ورتبوا فيه جحافلهم الجرارة استعدادا للجولة الفاصلة بينهم وبين العثمانيين . وقبل السلطان التحدى بالرغم من قلة عدد جيشه بالنسبة الى جيش اعدائه ، وبالرغم مما كان يخامره من قلق بسبب حلم ازعجه فى الليلة الماضية وقض مضجعه : فقد تراءى له ، وهو نائم فى خيمته ، ان خنجرا هوى على صدره وراح يداعبه بنصله الحاد ، فنهض من نومه مذعورا متشائما . وكان على وشك أن يأمر جيشه بالانسحاب وارجاء المعركة الى فرصة أخرى ، ولكن كرامته أبت عليه أن يفعل ذلك ، ويظهر أمام عدوه بمظهر الخـــائف المتهرب من النزال .

وبينما السلطان يصدر أوامره الاخيرة ، ويحدد لاعوانه موقع كل منهم ومهمته فى القتال ، اذا بضوضاء ترتفع فى سفح التل الذى يشرف منه على السهل ، واذا برجال حرسه يقتربون وقد احاطوا بامرأة تصيح طالبة المثول بين يدى مراد الاول ، بجراة والحاح .

لم تكن المراة غير نعمة ، التى قطعت المفاوز الشاسعة للوصـــول الى مقر السلطان قبل فوات الوقت ، وابلاغه رسالة الشيخ العربى ابراهيم البصرى العراف مفسر الاحلام .

عرفها السلطان من صـــــوتها ، وأمر بأن يفسح الحراس لها طريقا فامتثلوا للأمر ، وقبلت المراة يد السلطان ، وانتظرت رغبة مولاها فى ان يصغى الى رسالتها ، وقال مراد :

ـــ كيف حال ابراهيم يا نعمة ؟ اننى فى حاجة اليه اليوم ، لاننى رايت حلما يقلق بالى .

فأجابت المراة وقد ارتسمت على وجهها أمارات الدهشة :

ـــ وانت ايضا يا مولاى ؟ اننى أحمل اليك تفسير الرؤيا التى اقلقتنى انا فى ادرنة !

ـــ وماذا يقول ابراهيم ؟ وما الرؤيا ؟

وقصت المراة على السلطان ما حدث لها فى بيتهـــا بأدرنة ، أمام البحر ، وأضافت قائلة :

ـــ يقول ابراهيم البصرى يا مولاى : لا تخف ! ولا تحسب حسابا لقوة العدو وعدد جيشه ، فالنصر مكتوب لك فى هذه المعركة ، لاتتردد

اذن فى خوض غمارها ، ولكن ، احترس من عواقب النصر ! لاخوف عليك من القتال ، بل الخوف عليك من الغدر ! سيلمع نصرك غدا كما لمع الخنجر فى الافق ، ولكن الخنجر قد انثنى منحنيا على قدميك : فاحترس ممن ينحنى عليهما بعد الآن !

سكتت المرأة . وجمد السلطان فى مكانه مفكرا . ثم التفت الى اعوانه وقال :

ــ ما اغرب هذه المصادفة ! خنجر يبدو لهذه المرأة فى افق ادرنة وخنجر يهوى من سقف خيمتى فى كاسوفا . لو كان ابراهيم البصرى معنا لانجدنا بتفسير الحلم الأخير، كما أنجدنا بتفسير الحلم الاول . . . خنجر على القدمين ، وخنجر على الصدر !..

لم ينبس احد بكلمة حول السلطان . ولكنه ضحك ضحكة عالية ، وصاح بقواده :

ــ ايها الابطال ، غدا ، سنبادر العدو بالهجوم عليه . ولن ننتظر ان يصدمنا الصدمة الاولى . فاستعدوا : ان الذى يهمنا الآن هو الشطر الأول من تكهن البصرى .

***

وصف مؤرخ عثمانى معركة كاسوفا ، التى دارت رحاها فى منتصف شهر يونيو سنة ١٣٨٩ للميلاد ، الموافقة لسنة ٧٩١ هجرية ، بهذه العبارات : « كانت نصال السيوف وهاجة كحجارة الماس ، فحولها الدم المهراق الى قضبان من الياقوت الاحمر . والى ياقوت أحمر ايضا تحولت أسنة الرماح . اما ميدان القتال ، فقد تناثرت فيه الرءوس المقطوعة والعقبات التائهة والعمائم الزاهية ، فاستحال الى حقل تكسوه ازهار السوسن المختلفة الاشكال والالوان ! »

وكان انتصار العثمانيين حادا فاصلا . فقد سحق جيش الحلفاء سحقا ، وابيدت فلوله الهائمة فى أطراف الميدان ومنافذ الجبال .

واحاط اقطاب الدولة بمولاهم بعد ان اصبح النصر فى قبضة اليد ، وراحوا يهنئونه ويهتفون بحياته . وفى غمرة الفرح هذه ، اقبل فارس حربى على جواد أسود ، رافعا يديه علامة الاستسلام ، وقال : ان لديه سرا يرغب فى الافضاء به الى مراد الاول سلطان العثمانيين .

ولم يمانع السلطان فى مقابلة الرجل ، فترجل الصربى عن جواده ،

وقاده اثنان من رجال الحرس ، الى حيث كان مراد واقفا تحت مظلة خضراء ، فانحنى الرجل متظاهرا بانه يركع لتقبيل قدمى السلطان ولكنه فى أسرع من لمح البصر ، تناول خنجرا من كم ثوبه ، واغمد نصله فى صدر مراد الاول ، وقفز محاولا الافلات والهرب .

سقط السلطان على الارض ، والدم يسيل بغزارة من جرحه المميت . وسقط القاتل ممزقا بسيوف الحرس !

غير ان مصرع مراد لم يكن له تأثير على سير الحوادث . فقد اصدر اوامره الأخيرة قبل أن يسلم الروح . ومن بينها اعدام الامير لازاروس ، قائد الجيوش المتحالفة ، الذى أسره العثمانيون فى المعركة .

اما القاتل « مولوك كابيلوفتش » فقد اعترف قبل موته بأنه اقدم على اغتيال السلطان لكى ينفى عن نفسه تهمة الخيانة التى وجهها اليه سيده لازاروس قبيل المعركة ، وليثبت لبنى قومه انه لا يعمل لحساب العثمانيين كما ادعوا . ولم ير اثباتا اشد وقعا فى النفوس من الاقدام على اغتيال سيد العثمانيين وقاهر البلقانيين ، مراد الاول !

تحققت الرؤيا كما فسرها ابراهيم البصرى : فقد لمع انتصار السلطان كما لمع الخنجر فى الافق . ولكنه انتصار جر معا عواقب لم تكن فى الحسبان ، فقد تحول الخنجر فى يد الرجل الصربى الذى اكب على قدمى السلطان ليقبلهما ، الى أداة للفتك به ، وطعنه فى صدره . ومنذ ذلك الحين ، لم يسمح لاحد بأن يقبل قدمى السلطان العثمانى الا اذا أمسك به اثنان من الحراس !

ودفن مراد الاول فى بروصة ، عاصمته السابقة . وخلفه على العرش ابنه بايزيد الاول . وشيد العثمانيون مسجدا فى المكان الذى قتل فيه السلطان كما أقام الصربيون فيما بعد نصبا تذكاريا للرجل الذى قتله !

أما نعمة ، فقد بكت ، وعادت الى ادرنة حيث كانت الاخبار قد سبقتها ، وعلم الناس فى آن واحد بانتصار العثمانيين واغتيال سلطانهم .

وكانت الصدمة شديدة على ابراهيم البصرى ، فأودت بحياته قبل أن تعود المراة ، ويعرف منها انها ادت الرسالة بأمانة الى مولاه ، وان الاقدار أبت الا أن تجرى الحوادث ، فى هذه المرة أيضا ، كما تكهن بها العراف العربى .

وكان مراد الاول فى السبعين من العمر ، والشيخ ابراهيم البصرى فى التسعين .



تيمورلنك ، او تيمور الاعرج ، الفاتح التترى الذي هزم العثمانيين واسر سلطانهم بايزيد



« الموت خير من الحياة الذليلة ! » قال بعضهم هذا القول ، وعملوا به

« ... اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء » .

الحياة تجديد ، وسنة العمران تقتضي الهدم والبناء .

انهزمت جيوش ، وانقرضت أمم ، واضمحلت دول ، وقامت على انقاضها دولة الأتراك الفتية .

في سنة ١٣٧٨ للميلاد ، الموافقة لسنة ٧٨٩ للهجرة ، تدفقت جحافل السلطان مراد الأول تدفق السيل الجارف ، فاغرقت في خضمها سهول الأناضول ، واكتسحت مدنه العامرة ، ودكت جباله وحصونه ، وجعل الغزاة الظافرون يتطلعون الى القسطنطينية ، ويطمعون في الاستيلاء عليها والقضاء على دولة الروم فيها .

وكان يرافق السلطان في روحاته وغدواته ، ابنه البكر الشجاع ، الأمير بايزيد ، زعيم الفرسان وقائدهم في حومات القتال .

وقعت عليه أنظار « هيلانة » الجميلة ابنة القائد الرومي (ميليناس) في اثناء مفاوضة بين الرجلين ، على اثر انتصار جديد أحرزه بايزيد على أعدائه ، فعلق به قلبها ، وهامت تلك الفتاة الشقراء بحب ذلك الفارس الاسمر .

وفي ليلة ليلاء ، تحت ستار ظلام مدلهم حالك ، هجرت هيلانة أهلها ، ورحلت عن ديارها ، ولحقت بالفتى الآسيوى .

***

في سنة ١٣٨٩ للميلاد ، الموافقة لسنة ٧٩١ للهجرة ، التحمت جيوش الاتراك وجيوش الافرنج في معركة دموية في سهول « قاصوى » فسقط مراد الاول في الميدان ، وتناوله المنجل الحاصد سنبلة بين السنابل !

وكان بايزيد على رأس فرسانه ، فالتف الجيش حوله ، ونادى به

الجنود سلطانا خلفا لأبيه ، وهتفوا باســـمه بين صليل السيوف وقرع الطبول .

وتضاعف نفوذ هيلانة الفاتنة التى صارت من الوصيفات .

وكانت الفتاة من أمة جبلت نساؤها على المكر والخداع ، ومهرن فى طرح الشباك للصيد فى الماء العكر . ونبغن فى حبك خيـــوط المكايد والدسائس .

اختلت هيلانة ذات يوم بالسلطان بايزيد ، ودار بين الاثنين حديث مقتضب :

ـــ رأيت أمس حلما مروعا ، أخشى أن يتحقق وارتعد خوفا عليـــك يا حبيبى !

ـــ اى حلم هذا ؟

ـــ رأيت أخاك « يعقوب » يثب عليـــك وأنت راقد فى فراشك ، فيطعنك بخنجره ، لكى يخلو له الجو من بعدك ، ويتبوأ العرش الذى أنت جالس عليه !

ـــ أضغاث أحلام !

ـــ لا تقل هذا ، فما أكثر الأحلام التى تحققها الأيام !

ـــ وماذا تريدين أن أصنع ؟

ـــ أن تبطش بهذا المزاحم المزعج ، قبل أن يبطش بك !

وفى مساء ذلك اليوم ، مات الأمير يعقوب ، شقيق السلطان بايزيد مخنوقا فى حجرته !

***

وبعد أيام دار بينها وبين السلطان حديث آخر :

ـــ حلمت أمس حلما يخيفنى اكثر من الحلم السابق !

ـــ قصيه على .

ـــ رأيت « مانوئيل » ابن الملك « جان باليولوغوس » سيد الأروام وحاكم القسطنطينية ، يقودك مكبلا بالحديد الى داخل أسواره ، ويلقيك حيا طعاما للكلاب !

ـــ وماذا يتحتم على ؟

— ان تختطف هذا الأمير من قصر ابيه ، وتحتفظ به رهينـــة بين يديك !

— وكيف السبيل الى ذلك ؟

— دعني أفعل . سأجيئك به الى مضربك صاغرا ذليلا !

كانت هيلانة تحب مانوئيل . لكنه أعرض عنها . فسعت الى الانتقام منه . واغتنمت تلك الفرصة السانحة .

دخلت مدينة بيزنطه . ولفقت حديثا كلــه كذب في كذب ، فحملت الأمير مانوئيل على الخروج بشرذمة من رجاله . فوقع الجميع في كمين أقامه الأتراك وجيء بالشاب أسيرا مقيدا الى مضرب بايزيد .

فاضطر ملك الروم الى دفع جزية وافتداء ولده بأموال كثـــيرة .

***

في سنة ١٣٩٦ للميلاد . الموافقة لســنة ٧٩٩ للهجرة . ســحق السلطان بايزيد جيوش الافرنج سحقا في واقعة نيكوبوليس . وعاد الى ضرب الحصار على القسطنطينية . مقسما الا يذوق راحة الا بعــد أن يقتحم أسوارها .

لكن عدوا جديدا لم يكن بايزيد يحسب له حسابا . ظهر فجأة وراء جيوش الأتراك المظفرة . وهدد مملكتهم بما كانوا يهددون به الممـــالك . ذلك العدو هو تيمور لنك الفاتح التترى . الـــــذى خضعت له شعوب الشرق قاصيها ودانيها . والذي قيل له : ان هناك . في بطاح الأناضول . سلطانا يدعى انه أشجع الشجعان ، وأفرس الفرسان . فجد ساعيا اليه طالبا منازلته في الميدان .

فطن بايزيد الى الخطر الداهم ، فجمع أخصـــاءه وأمراء جيشه ، واصدر اليهم أوامره برفع الحصار عن مدينة الروم . وحصر جهودهم في صد الغزاة ، وطردهم عن أطراف الاناضول .

***

في سنة ١٤٠٢ للميلاد . الموافقة لسنة ٨٠٥ للهجرة . في انقرة مدينة الذكريات . في قلب الاناضول النابض . في السهل المنبسط . بين تلك الآكام والانجاد ، أعد بايزيد نفسه للقتال . وربض منتظرا قدوم المهاجمين .

فوفد عليه تيمور لنك بأربعمـــــائة ألف فارس يشرعون الرماح ، وستمائة ألف راجل يشدون الى الاقواس النبال !

ودارت الدائرة على الاتراك : فوقع السلطان اســـيرا ، وتشتت رجاله لايلوون على شيء

وسالت الدماء ، وارتفع العويل ، وتصعدت من الصدور الزفرات .

***

جيء بالمغلوب الى الغالب . فاكرمه واجلسه الى جانبه ، وسأله :

ـــ ماذا كنت تصنع بى لو ظفرت بجيشي ورايتنى الآن اسيرا بين يديك ؟ .

فأجاب بايزيد :

ـــ كنت أحبسك فى قفص من حديد ، وأطوف بك فى مملكتى :

فقال تيمورلنك :

ـــ وهذا ما سأصنعه بك . حتى يقضي الله أمره !

وعاد الفاتح الى بلاده . ومعه السلطان فى قفص !

ومضت سنة وبايزيد فى سجنه الحديدى ، يبكى ملــكه الضائع ، وحريته المسلوبة ، والغيظ يتأكل احشاءه .

سامه عدوه القاسي انواع الذل والهوان ، وطاف به فى انحــــاء مملكته ، وعرضه على انظار رعيته . وسمح للناس أن يبصقوا فى وجهه ، وأن يوجهوا اليه ما شاءوا من الاهانات .

وفى ذات يوم ، دخل على تيمورلنك حاجب ، وقال :

ـــ مولاى . بالباب فتى يطلب المثول بين يديك ، ويقـــــول : انه غريب عن هذه الديار ، وان لديه مايفضي به اليك سرا .

فأمر تيمورلنك بادخال ذلك الغريب . .

واذا بفتى أمرد ، بهى الطلعة ، يتقدم نحوه خاشعا . ويلقى بنفسه على قدميه باكيا منتحبا :

ـــ من انت ؟ وماذا تريد ؟

ـــ أنا . . .

تردد الفتى لحظة ، ثم نزع ثوبه عن صدره وقال :

ـ لست كما تظن أيها المولى ، انما الماثل امامك فتـاة مسكينة ، جاءت تطلب منك رجاء هو آخر رجاء لها في الحياة .

فانتفض تيمور لنك وقال :

ـ أفصحي .

ـ أنا حبيبة السلطان بايزيد ، أسيرك المحبوس في قفص . جئت لأشاهد حبيبي للمرة الأخيرة .

فنهض تيمورلنك ، واقترب من الفتـاة الشجاعة ، وقد اكبـر اقدامها ، وقال :

ـ لا أرفض اجابة رجائك ، اليك ما تطلبين .

ونادى حاجبه ، وأمره بالسير مع الفتاة الى حبيبها في قفصه .

***

وصلت هيلانه امام ذلك الذي أحبته وخانت عشيرتهـا من اجله . فأجهشت بالبكاء وابكت الأسير معها .

ثم رفعت رأسها . وقد لمع في عينيها بريق لم يعهده بايزيد فيهما من قبل ، وقالت له بصوت ثابت ، ولهجة صارمة :

ـ بايزيد . وصلت الينا أخبارك ، وعلمنا بمـا الحقه بك هؤلاء البرابرة من صنوف العذاب . وها قد جئتك اليـوم حاملة اليك رجاء صديقة لاتطيق العيش بعيدة عنك . بايزيد ، لا أمل في انقاذك من مخالب هؤلاء الوحوش . فضع حدا للعار الذى تعيش فيه . اقطع حبل حياتك بيدك ، ما دام عدوك لا يمن عليك بالموت الذى يخلصك من هذا العذاب ، انني انتظر ، وسأموت معك ، هنا ، على مرأى منك ، فلم يدعها بايزيد تسترسل في كلامها ، بل قاطعها قائلا :

ـ صدقت ياهيلانه ، الموت خير من الحيـاة الذليلة ! الوداع يا حبيبتي ! الوداع !

ووثب السلطان الأسير على حديد قفصه . فضرب رأسـه عليه ضربة شجت جمجمته ، وسقط يتخبط في دمه !

فصاحت هيلانه صيحة مفجعة ، وتناولت خنجــرها واغمدته بين ثديبهـــا .

***

وأمر تيمورلنك بدفن الجثتين في لحد واحد .

فتعانق الحبيبان عناقهما الاخير ، بين احضان الثرى وفي سكون المــوت !.



حمام النساء في قصور السلاطين



كان ابن السلطان أكثر اهتماما بالكأس منه بالعرش . وقد راح ضحية سكره على حين كانت الدماء تصبغ العرش بلونها الأحمر !

وقعت المعركة الفاصلة بين العدوين اللدودين في ٢٠ من يوليو سنة ١٤٠٢ ، الموافقة لسنة ٨٠٥ للهجرة . وبالرغم من استبسال الترك في القتال ، وشجاعة سلطانهم بايزيد الخارقة ، وبراعة قوادهم النادرة ، فقد تغلب عليهم تيمورلنك التترى بجحافله الجرارة ، وانزل بهم هزيمة نكراء ، وشتت شمل كتائبهم ، وكلل انتصاره الساحق بأسر السلطان نفسه ، وأخذه معه مكبلا بالاغلال . . . تلك هي معركة « انقرة » التى نككت أوصال الدولة العثمانية في عهد الرابع من سلاطينها .

وكان لبايزيد خمسة ابناء أخذوا نصيبهم من القتال ، وأبلوا فيه مثل ابيهم بلاء حسنا : اولهم سليمان ، الابن الاكبر ، الذى الح عليه ابوه بان يهرب من الميدان ابقاء على السلالة المالكة ، وانقاذا للعرش . وثانيهم موسى ، الذى جرح في خلال المعركة ووقع اسيرا مع أبيه . وثالثهم عيسى الذى تمكن من الافلات والالتجاء الى مدينة بروسة . ورابعهم مصطفى الذى سقط في حومة القتال مثخنا بالجراح . وخامسهم محمد ، البالغ من العمر خمسة عشر عاما ، والذى أثار اعجاب أعدائه أنفسهم باقتحامه الاهوال ، فأصيب بجراح لا عداد لها ، وشق طريقه بين جموع التتر والسيف بيده ، حتى بلغ احدى القلاع فاحتمى بها . وقد قتل محمد بن بايزيد بيده عشرات من فرسان تيمور ، بينهم قائد من أشهر قواده . وانشأ لنفسه ملكا مستقلا في البقاع التى لم يتم استيلاء التتر عليها ، في الناحية الآسيوية من السلطنة .

***

وكان مقدرا لبايزيد أن يظل اسيرا وان يموت في اسره ، ويبقى ابنه موسى رهينة بين يدى تيمور .

أما سليمان ، فقد اجتاز البحر في طريقه الى ادرنة ، عاصمة السلطنة ، للاعتصام فيها . وعرج في طريقه على القسطنطينية ، حيث كان الامبراطور مانويل باليولوغس يرقب تطور الصراع بين الترك والتتر ، متمنيا أن يقضي كل من الفريقين على الآخر قضاء لا قيام بعده ، لكي

يبتعد الخطر عن عاصمته التى كان هؤلاء واولئك يتطلعون اليها ويتوقون الى الاستيلاء عليها !

ورحب الامبراطور الرومى بالامير التركى الشريد ، وانزله ضيفا فى قصره ، وأجابه الى رغبته فى عقد محالفة بين القسطنطينية وأدرنة ، وتم الاتفاق بين الرجلين على ألا يناصب أحدهما الآخر عداء ما داما على قيد الحياة .

وتوكيدا لهذا الميثاق ، طلب سليمان من حليفه أن يزوجه ابنة أخيه الأميرة « تيودورا » فحقق مانوئيل أمنيته ، وطلب منه مقابل ذلك أن يترك أخته « فاطمة » ابنة السلطان بايزيد فى القسطنطينية ضيفة على أسرة الامبراطور . ولم يمانع سليمان فى ذلك .

وواصل الامير العثمانى سيره الى ادرنة ، ومعه زوجته الرومية ، وأربع وصيفات روميات مثلها ، والحسناء « صوفيا » الالبانية ، أختها فى الرضاعة .

وفى عاصمة السلطنة التى مسخت بعد أن كانت مترامية الاطراف استقر المقام بابن بايزيد ، ولحق به فريق من القواد واقطاب الدولة ، الذين نجوا من الهلاك بعد هزيمة انقرة ، وقــد أفرغوا آمالهم كلها فى الأمير الشاب الذى ألقيت على عاتقه مهمة النهوض بالشعب العثمانى المضعضع ، وصيانة العرش المتداعى ، واعادة تنظيم الجيش المشرد .

ولكن آمالهم أصيبت بصدمة عنيفة ، منذ الاسابيع الاولى : فقــد نسي سليمان أو تناسي أن أباه يرسف فى أغلال الذل والهــوان ، وأن التتر يحتلون جزءا من أطراف دولته ، وأن أخاه محمــــدا يروم البقاء مستقلا فى جزء آخر من تلك الدولة .

كان سليمان أكثر اهتماما بالكاس منه بالعرش ، وأشد ميــلا الى اللهو منه الى الجـــد ، يؤثر قضاء وقته بين أحضان نســـائه ، على قضائه فى مجلس الدولة مع وزرائه وقواده . وكان انصاره يأســفون لسلوكه المعوج ، وهو الرجل ذو الصفات الكثيرة ، الشجاع المقدام ، الذكى النابه ، الكريم السخى ، الذى لم يكن فيه غير عيب واحد : ادمانه على معاطاة الخمور ، وهو عيب كاف لتحويل جميع الصفات الحسنة الى عيوب بشعة !

***

ولم تكن زوجته الرومية أقل امتعاضــا من رجال الدولة الغيورين

على اميرهم . فقد كان سليمان يقسو عليها وهو في حالة سكره ، وكثيرا ما كان هذيانه يدفعه الى مطاردة الوصيفات والجوارى والعبيد . خلال قاعات القصر وممراته . وفي يده سوط يلهب به ظهورهم . ويضحك من صياحهم ، وتنبسط اساريره لرؤية الدماء تسيل من جراحهم !

وفى احدى الليالى ــ وما اكثر مثيلاتها ــ خطر له ان يأمر «صوفيا» صديقة زوجته ، بأن تجرى فى قاعة العرش . عارية من الثياب . لكى يجرب فيها سوطه . فرفضت الفتاة بأنفة واباء . وفار فائر الامير السكران ، فوثب عليها . ولفح وجهها بسوطه . واسرعت تيودورا لحماية صديقتها من الأذى . وخرج سليمان من القاعة يتوعد ويهدد . ويرغى ويزبد !

ضمت الرومية أختها الالبانية الى صدرها . وجعلت تمسح بمنديلها خيوط الدماء النافرة من خدى صوفيا الناعمين . وتمسح فى آن واحد الدموع المنهمرة من عينيها النجلاوين .

وبكت الزوجة لبكاء صديقتها . وقادتها برفق الى مخدعها .

أما سليمان . فقد ملأ ارجاء القصر بصياحه . ولم تهدأ ثورته الا عندما التقى امام الرتاج الخارجى ، بالصدر الاعظم على باشا ، وقائد الانكشارية حسن اغا . ومعهما شخص ثالث قالا للأمير : انه رسول موفد من تيمورلنك قاهر ابيه !

كان الرجل يحمل خطابا من سيد التتر الى الأمير العثمانى . يتبلغه فيه بوفاة السلطان بايزيد فى الأسر . ويقول : « لقد حالفنى الحظ اكثر من اى رجل آخر فى هذه الدنيا . وما نظر احد الى ما بلغته من سؤدد ومجد . الا اصابه الذهول . ولكن ذلك كله لا يؤثر فى بقدر ما أثر فى شقاء أبيك . فانه يحملنى على وضع حد لمطامعى . ويعلمنى ان الدنيا علو وهبوط . فانا راغب الآن فى نسيان الماضى . أريد أن أنسى اننى كنت عدوا لبايزيد . بل اننى راغب فى أن أكون أبا لابنائه . على شرط أن يسلموا الى قيادهم : ان فتوحى تكفينى . ولا أريد أن اضيف اليها فتوحا جديدة » .

ذلك ما جاء فى تلك الرسالة العجيبة . التى بعث بها تيمورلنك القاهر . الى خليفة بايزيد المقهور .

ولكن سليمان لم يقابل نيات الفاتح التترى الحسنة . بما تستحقه من تقدير ومسالمة . بل ان السكر صور له أن تيمورلنك خائف منه ، وأن

عطفه عليه ليس في الواقع غير ضعف يجب مواجهته بالشدة والعنف !

وكتب سليمان العثماني الى تيمور التترى ردا عده الفـاتح المنتصر رعونة ووقاحة ، فنادى أسيره موسي بن بايزيد ، وقال له « كن سلطانا بعد ابيك السلطان ، ومحل اخيك الذى لايليق بالعرش . فانني لا اريد القضاء على ملك بني عثمان . والفاتح ذو النفس العالية ، يعرف كيف يغزو الممالك ، ويعرف أيضا كيف يردها الى أصحابهـا فأنت في نظرى ؛ منذ الآن ، السلطان موسي الاول ! » .

وانطلق الاخوان في سبيل الاستئثار بالعرش واستعان موسي الاول بالتتر ، لمهاجمة أخيه سليمان الاول ، الذى استعان عليه بالروم !

ونزل الى الميدان أيضا الاخوان محمد وعيسي ، فأصبـح العرش العثماني رهانا بين الاخوة الاربعة ، كل منهم يسعي للتربع عليـه خلفا للأب الراحل ، بايزيد الاول !

وبينما تيمورلنك يعـود أدراجه ، راجعا الى سمرقند ، بدون ان يحتفظ لنفسه بشيء من فتوحه ، كانت السلطنة العثمانية تتحـول ، من اقصاها الى أقصاها ، الى ميدان لحرب اهلية طاحنة ، يتناحر فيهـا الاخوة ، وتتقاتل فيها الاحزاب . .

***

لم تطق صوفيا البقاء في قصر السلطان سليمان بأدرنة ، بعـد الاهانة التي لقيتها منه ، ولم يسع السلطانة تيودورا الا أن تقرها على الرحيل عن مكان أصبح بالنسبة اليها اشبه بالجحيم . فودعت الفتاة أختها في الرضاعة ، وابتعدت عن العاصمة التركية بدون أن تعلم الى أين تقودها خطاها !

لم تفكر في العودة الى القسطنطينية ، والاقامة من جديد في كنف الامبراطور ، ولم يكن لها في وطنها البانيا أهل تلجأ اليهم ، أو بيت تحتمى فيه . فسارت هائمة على وجهها ، معرضة للمخاطر في بلاد أمنها مفقود وحالتها مضطربة ، ووصلت ذات يوم الى بلدة « دكنجي » حيث تقيم جماعة من الصيادين التركمان ، وكان الاعياء قد اخذ منها مأخذه . فطرقت باب اسرة من اسر أولئك الصيادين ، ورحب بها أفراد الاسـرة ، ورفقوا بحالها . وما مرت أسابيع حتى كانت صوفيا الالبانية قد اصبحت زوجة لواحد من الاخوة الخمسة الذين تتألف منهم الاسرة التركمانية ، وهو الاخ الوحيد العزب !

وبدأت الالبانية الحسناء تألف الحياة الجـــديدة التى هيأتها لها المصادفات ، وتنسي ماضيها فى قصر الامبراطور الرومى . ثم فى قصر السلطان العثمانى ، وانصرفت بكليتها الى العناية ببيتها . واخذ نصيبها من الاعمال المنزلية بين افراد اسرتها الجديدة . .

ولكن الاقدار ابت أن تساعدها فى اسدال الستار على الماضي . وشاءت أن تجمع من جديد بين الوصيفة التى اهينت والســـلطان الذى أهانها ، وذلك فى ظروف لم تكن فى الحسبان !!

فقد توالت المعارك بين الاخوة الاربعة المتزاحمين على عـــرش العثمانيين ، وتخللتها حوادث ومفاجآت قلبت الحالة فى النهاية راســا على عقب .

هاجم سليمان اخاه موسي . ثم ارتد متقهقرا ولحق به اخوه ، وانضم عيسي الى هذا ثم الى ذاك . وفعل محمد مثله . فحالف موسي ثم حالف أخاه الاكبر ، وانسحب عيسي من الميدان واختفى . ولزم محمد الحياد وترك اخويه يتقاتلان على العرش . وانهزم موسي امام سليمان فابتعد الى جبال البلقان ليعد العدة لهجوم جديد . وظن سليمان أن الامر قد استتب له فقبع فى عاصمته أدرنة ، وعاوده فيها الحنين الى الكأس فانغمس فى ملاذه بعد أن حرمته المعارك اياها . وفجأة ، ظهر امام اسوار المدينة جيش لجب يقوده موسي . واجتاز الجيش الابواب التى فتحها الحراس بلا مقاومة ، واقتحم القصر حيث كان الاخ السكران خالى البال لايفكر فى خطر ولا يظن ان هناك من يهدد عرشه وحياته . .

وتخلى عنه قواده ووزراؤه ، فهرب من القصر بمعونة بعض الخدم والعبيد ، وامتطى صهوة جواده العربى الابيض ، وانطلق فى العراء يطلب النجاة .

ولحق به ثلاثة من رجال الحرس الذين ظلوا على ولائهم له ، وبعد رحلة شاقة فى الجبـــال والوديان . وصـــــل السلطان الطريد الى غابة كثيفة ، فى طريق القسطنطينية ، وبدت له ، فىطرف الغابة ، بلدة صغيرة عرفها رجال الحرس .

سأل سليمان : « ما اسم هذه البلدة ؟ » فقيل له : اسمها « دكنجى »

وتردد الفرسان الاربعة وتشاوروا فيما بينهم : هل يدخلون القرية ، أو يواصلون السير بعيدين عنها ؟ .

وتناول سليمان قربة صغيرة معلقة على سرج جواده . وافرغ فى فمه

البقية الباقية فيها من خمر أدرنة ! فانه نسي كل شيء قبل هربه . ولكنه لم ينس مئونته من الخمر !

وقبل أن يستقر الرفاق الهاربون على رأى ، ظهر بين أشجار الغابة خمسة من الرجال التركمان ، وفى يد كل منهم قوسه .

انهم ذاهبون كعادتهم كل يوم الى الغابة للصيد والقنص . وقد وقع نظرهم على الاغراب ، الذين استرعوا انتباههم بأثوابهم الزاهية المزخرفة، وخيولهم المطهمة . فاقتربوا منهم مدفوعين بحب الاستطلاع . .

لكن السلطان الهارب أوجس خيفة منهم . وصور له سكره أن أولئك الرجال الخمسة ، المسلحين بالاقواس والسهام ، انما هم قتلة أرسلهم أخوه فى اثره لاغتياله ، فشد سهما الى قوسه ، وفى سرعة البرق أطلقه على واحد من الخمسة فأرداه قتيلا . وفى سرعة البرق أيضا ، شد سهما ثانيا والحق بالقتيل الاول قتيلا آخر . ولكن الثلاثة الباقين كانوا قد اتخذوا من الأشجار متاريس تحميهم من ثورة الغريب الهائج ، وشدوا من جهتهم ثلاثة سهام الى أقواسهم ، وأطلقوها معا فاستقرت جميعها فى قلب السلطان ، وهوى عن جواده جثة هامدة ، على حين كان رفاقه يرخون لخيولهم العنان ، وينجون بأنفسهم من هلاك أكيد .

واقترب الصيادون الثلاثة من جثة القتيل ، وفصلوا رأسها عن الجسد ، وحملوا الرأس الى القرية ، وحملوا معه القتيلين .

لم يكن اولئك الصيادون غير افراد الاسرة التركمانية التى انضمت اليها صوفيا الالبانية فى بلدة دكنجى . وكان زوجها أحد الاثنين اللذين أرداهما السلطان قتيلين قبل أن تمزق السهام الثلاثة صدره .

وعرفت المراة سليمان بن بايزيد عندما وقع نظرها على الرأس المخضب بالدم . فراحت تبكى وتنوح على موت زوجها ، وأمام سكان القرية الذين تجمعوا حول الجثتين ، قصت صوفيا قصتها ، وروت لهم كيف ضربها السلطان بسوطه ، وكيف هربت من قصره !!

وحمل الاخوة الثلاثة رأس سليمان الى أخيه موسى . فأخذه منهم . وأمر بدفنه فى حديقة القصر . ولكنه خاطب الصيادين قائلا :

— ان أخي كان عقبة فى طريقى ، وكان لابد من موته ، ولكن ، كان يجب أن يقتل بيدى ، لابأيديكم انتم ، يا صيادى الوحوش !

وأمر بالقبض على أولئك الذين خلصوه من مزاحمه على العرش ، وأرسلهم الى قرية دكنجي حيث قتلهم رجاله حرقا !

وبعد مقتل الاخوان الخمسة ، قبعت في بيت الصيادين خمس نساء يبكين رجالهن !

***

ولكن الاقدار لم تختم سلسلة مفاجآتها بمصرع السلطان والصيادين الخمسة ، بل ادخرت لصوفيا الالبانية مفاجاتين اخريين : فقد وثب محمد ابن بايزيد على أخيه موسي ، كما وثب موسي من قبل على اخيه سليمان . وبعد ان انهزم سليمان وقتل في سنة ١٤١٠ للميلاد الموافقة لسنة ٨١٣ للهجرة ـ حلت الهزيمة أيضا بأخيه موسي ، سنة ١٤١٣ الموافقة لسنة ٨١٦للهجرة ففر حارق الصيادين الثلاثة منقصره بادرنة ولحق به جنود أخيه فقتلوه في مستنقع غاص فيه جواده .

واما المفاجأة الاخيرة ، فهي قدوم تيودورا ، السلطانة الرومية ، الى قرية دكنجي ، والحاحها على أختها صوفيا بالعودة معها الى قصر الاباطرة في القسطنطينية ، وقبول الالبانية رجاء السلطانة السابقة .

وعلى ضفاف البوسفور ، حاولت المرأتان ان تقضيا البقية الباقية من حياتيهما في جو ينسيهمــــا تلك الحوادث الدامية التي اثارها الاخوان سليمان ، وموسي ، للاستئثار بعرش بني عثمان . فكانت النتيجة ان ذهب الاثنان ضحية ذلك الصراع العنيف ، الاول بسبب الكاس التي آثرها على العرش ، والآخر بسبب طيشه وسوء تدبيره ، فآل الملك بعدهما الى محمد الاول بن بايزيد ، وامتنع العثمانيون فيما بعد عن تدوين اسمي سليمان وموسي بين أسماء السلاطين ، باعتبار انه لا هذا ولا ذاك قد تربع على عرش الدولة العثمانية موحدة تحت سلطة واحدة .

ساق التتر الى الأسر زوجات بايزيد واخوته
(لرسام انجليزى)



حارب من أجل العــــرش
فانهزم ، وآثر الحياة بين رعاة
الغنم على مواصــلة القتال !

اسفرت المداولة بين الامير عيسي بن السلطان بايزيد ، والقائد العظيم تيمورطاش ، عن اتفاق تام بين الرجلين ، فعولا على خوض غمار الحرب والفوز بالعرش العثمانى الذى كانت تتقاذفه المطامع وتكتنفه المؤامرات .

وقال تيمورطاش السياسي المحنك ، للامير الشاب :

ـــ لست يابنى اكبر أخوتك سنا ، ولا أوسعهم خبرة . ولكنك فى نظرى اقربهم الى قلوب الرعية ، وأكثرهم عطفا عليها ، والدولة الآن فى حاجة الى سلطان يواسيها ويضمد جراحها ، بعد ما اصابها من هوان على يد تيمورلنك وأولئك التتر الذين اجتاحوا بلادنا وساقوا اباك اسيرا الى حيث لقى حتفه .

واجاب الامير عيسي بن السلطان بايزيد :

ـــ اننى اضع كل ثقتى فيك ياتيمورطاش ، لانك بالنسبة الى بمثابة ذلك الوالد الذى فقدته . واذا كانت تنقصنى الخبرة ، فعندك منها ما يكفى ويزيد . ان كلا من أخوتى الثلاثة ، سليمان وموسي ومحمد ، يسعى اما للاستيلاء على عرش آل عثمان فى « أدرنة » واما الى اقتطاع جزء من الارض العثمانية لينشيء فيها امارة لحسابه . فلماذا لا اصنع أنا ما يصنعه اخوتى ، كل من ناحيته ؟ الست مثلهم من صلب بايزيد ومن سلالة عثمان ؟ فلنتوكل اذن على الله ، ولتكن مشيئته الحاكمة الفاصلة بيننا نحن الاربعة !

ـــ ليس فى وسعنا الآن أن نحارب أخوتك مجتمعين ، بل يجب علينا ان نتغلب عليهم متفرقين . وجيش أخيك محمد يقف الآن وحده فى طريقنا ، ويحول دون اقامة عرش لك فى الاناضول ، ريثما يصبح لدينا من القوة ما يكفى اجتياز المضايق والوثوب على أدرنة حيث يعتصم سليمان فى قصر السلاطين .

ـــ لنتخلص أولا من محمد وجيشه .

ـــ ان هذا الجيش يقوده يعقوب باشا ، القائد الداهية الشجاع ، الذى دافع عن أنقرة دفاع الابطال وانزل بالتتر خسائر ضعضعت صفوفهم. فالخصم الذى أمامنا صنديد عنيد .

ـ ولكنك لست أقل دهاء وشجاعة من يعقوب ، ياتيمورطاش !

وتعانق ابن السلطان ووزيره القائد ، وجلسا يعدان العدة للمغامرة التى حزما امرهما عليها .

***

كانت السلطنة العثمانية فى حالة يرثى لها ، بعد هزيمة بايزيد فى معركة انقرة سنة ١٤٠٢ للميلاد ، الموافقة لسنة ٨٠٥ للهجرة ، ووقوعه أسيرافى يد تيمورلنك ، وموته بعيدا عنوطنه . فقد اختلطالحابل بالنابل ، وتقاتل ابناء السلطان وتنادروا ، وللمرة الاولى فى تاريخ السلطنة منذ نشأتها ، وقعت حرب أهلية بين العثمانيين الذين تفرقوا شيعا وأحزابا .

وفى المعركة التى اشتبك فيها الاميران عيسي ومحمد ، دارت الدائرة على الاول ، وكتب النصر للآخر ، وقهر يعقوب باشا خصمه ومنافســـــه تيمورطاش . وفى مساء ذلك اليوم الذى خابت فيه آمال عيسي ، دخل واحد من عبيد تيمورطاش على سيده فى خيمته ، وقطع رأسه ، وحملها فى كيس الى الامير محمد الذى أرسلها مع وفد من انصاره الى أخيه الاكبر سليمان ، وكان قد نادى بنفسه سلطانا فى أدرنة . وكان محمد بهـذا العمل يريد أن يقول لاخيه : « لقد خلا لى الجو فى الاناضول ، فابق أنت سلطانا فى الجزء الاوربى من أرضنا ، وأترك لى الجزء الآسيوى ! »

أما عيسي السيء الحظ فقد تمكن من الفرار ، ولجأ الى بيت تيمورطاش فى مدينة بروصة ، ولكنه ادرك أن أخاه سيلحق به ، فحار فى أمره ، وقد وجد نفسه وحيدا شريدا بعد ان انفرط من حوله عقد انصاره ، وتخلى عنه الجميع لينضووا تحت لواء محمد .

وهنا دخلت فى حياة الامير الشاب الفتاة التى اختارتها الاقــــدار لانقاذه من هلاك اكيد ، مرتين متواليتين .

فان أسرة تيمورطاش كانت ترتعد خوفا فى بيت القائد الذى قتل غدرا ، وزادت مخاوفها عندما لجأ الى البيت الامير التعس الهارب . وشعر المسكين بأن بقاءه سيجر على الاسرة الوبال ، فعول على الرحيل للبحث عن مأوى لايكون فى متناول أخيه .

وتقدمت اليه فتاة تعمل خادمة فى بيت الاسرة ، وأفضت اليه بما يجول فى خاطرها ، انها رومية تدعى « نفتاليا » وابنة رجل من رعاة الغنم فى جبال طوروس ، رآها تيمورطاش مرة فى بلدة « ساتاليه » وهى فى عراك مع جماعة من الترك ، يحاولون اختطاف كومة من الجلود جاءت الى البلدة

لبيعها . فانقذها القائد من ايديهم ، واشترى منها الجلود ودفع لها الثمن ، واعادها الى ابيها فى ظاهر البلدة حيث كان الرجل يعرض ايضا للبيع كومة اخرى من الجلود . فقبل الراعى الرومى يد القائد التركى . وشكره على صنيعه ، ولما عرض عليه تيمورطاش أن يتخذ منه ابنته لتكون رفيقة لبناته فى داره بمدينة بروصة . لم يمانع الرجل . بل رأى فى ذلك فرصة سانحة لانقاذ الفتاة من مخاطر الحياة فى الجبال الوعرة . فى زمن فقد فيه الأمن وانتشرت اللصوصية وعمت الفوضى .

وهكذا انتقلت نفتاليا ابنة راعى الغنم . من حال الى حال . وهى الآن بعيدة عن ابيها . لاتعرف ماذا حل به منذ أن فارقته فى سالنيكه ؟ ولا تعرف ماذا يخبىء لها الغد ، بعد مصرع الرجل الذى تبناها واغدق عليها اياديه البيضاء ؟

انها حزينة كئيبة ، والامير الهارب امامها حزين كئيب . لا هى تعرف الى اين تذهب ؟ ولا هو يعرف الى اين يتجه ؟ واما اسرة تيمورطاش ، فانها تفكر فى الانتقال من بروصة . هربا من بطش الامير محمد بعد انتصاره . والذهاب الى ادرنة ، والالتجاء الى أخيه سليمان . وهذا ما لم يكن فى وسع عيسى أن يقدم عليه ، لانه يخشى أخاه هذا ، بقدر ما يخشى اخاه ذاك !

وقالت نفتاليا ، فى غمرة يأس سدت فى وجهها المنافذ :

ــ لنذهب الى القسطنطينية ، ولنطلب حماية الامبراطور !

وراقت هذه الفكرة للامير عيسى بن بايزيد : فان القسطنطينية ، التى كانت لا تزال باقية فىقبضة الروم ، بعد أن استولى الترك على ملكهم كله ، كانت الملجأ الوحيد الذى يطرق بابه كل أمير عثمانى . أو قائد تركى ، تنزل به نكبة ، أو تحل به نقمة !

***

أكرم امبراطور الروم وفادة الامير العثمانى . واطمأنت نفتاليا على نفسها فى كنف قومها . ولكن عيسى لم يخلد الى الهدوء والاستكانة فى ذلك المأوى الامين . فجعل يخابر اعوانه سرا . وشجعه الامبراطور على استئناف الصراع مع أخيه محمد الذى استقر فى امارة الاناضول وعاصمتها بروصة ، لأن مصلحة الروم كانت تقضى باضعاف الترك فى حروب ومنازعات . وأرسل سليمان من عاصمته ادرنة يحث كلا من اخويه سرا على محاربة الآخر . وما هى غير شهور حتى كان عيسى بن بايزيد قد

جمع حوله جيشا مؤلفا من عشرة آلاف مقاتل ، واجتاز المضايق من الضفة الاوربية الى الضفة الاسيوية — واغار على مملكة اخيه على امل ان يطرده من بروصة كما طرده هو منها بعد المعركة الاولى . .

ولكن المعركة « الثانية » لم تكن خيرا من سابقتها . وبالرغم من المساعدة التى تلقاها عيسى من امبراطور الروم ، وانضمام لفيف من الاقطاعيين الترك اليه ، فقد منى بهزيمة نكراء ، ولم يفلت من الهلاك الا بفضل سرعة جواده الذى ابتعد به عن ميدان القتال فى ظلام الليل !

قضت تلك المعركة على آمال الامير الشاب قضاء تاما . ولم يبق له أمل فى أن يبتسم له الحظ من جديد . ولكنه لم يفلت فى هذه المرة وحده ، بل تبعته الفتاة الرومية نفتاليا ، التى أبت الا أن تشاركه فى مصيره الى النهاية ، فمشت معه الى القتال ، ولحقت به بعد الهزيمة !

***

تجلى لعيسى شبح اليأس فى أفظع صوره : فقد تشتت رجاله ، وحنق عليه الانصار الذين أيدوه . واطلق أخوه محمد فى اثره أسرع فرسانه وأشد زبانيته قسوة ، للقبض عليه حيا أو ميتا . واسودت الدنيا فى وجهه فجعل يتساءل : اليس خيرا له واوفى أن يقطع حبل حياته بيده ، بدل أن يظل تائها فى البرارى والقفار ، لكى يقع فى أيدى القتلة الذين سيتسابقون الى الفتك به ، طمعا فى المكافأة التى لابد ان يخصهم بها أخوه الغاضب الناقم ؟

وفى ظلمة تلك الهواجس رن فى اذنى عيسى صوت عذب طالما طرب من قبل لسماعه ، ذلك هو صوت نفتاليا ، راعية الغنم الرومية ، التى هدته الى طريق القسطنطينية ، وتفانت فى خدمته وهو ضيف على الامبراطور ، وظلت ملازمة له عندما خرج للحرب ثانية ، ولم تفكر فى التخلى عنه بعد ما أصبح وحيدا طريدا شريدا :

— يا أميرى المحبوب ، لا يحسن بنا فى هذه المرة أن نلجأ من جديد الى عاصمة الروم . ولو ذهبنا الى اخيك سليمان لاعتقلك وسجنك . ولو احتمينا بحصن من حصون أعوانك ، او من كانوا بالامس اعوانك ، فسوف يسلمك صاحب الحصن أيا كان الى اخيك محمد أو الى اخيك الثالث موسى الطامع ايضا فى العرش مثلك .

— صدقت يا نفتاليا ، اذن ، لايبقى أمامى غير مخرج واحد من هذا المأزق الصعب !

ـــ وأى مخرج تعنى ؟

ــ سأقتل نفسي ، فأستريح ، واريح أخوتى منى ، واريحك انت من الخوف والقلق !

كان الشابان قد وصلا الى غابة تعذرت عليهما مواصلة السير بين اشجارها المتلاصقة ، فى ذلك الظلام الحالك ، فترجلا ، واستلقيا على الارض منهوكى القوى . واقتربت الفتاة من الامير المنكوب ، وحدقت فيه البصر ، وقالت بصوت متهدج والعبرات تكاد تخنقها :

ــ عيسي ، ما الذى جعلك تعتقد اننى خائفة قلقة ؟ وكيف امكنك أن تظن لحظة واحدة ان فى موتك راحتى ، وان حياتك ليست عزيزة على ؟ أنت اذن لاتثق بى ، ولا تحبنى !

كانت هذه الكلمات كافية لتمزيق الغشاوة عن عينى الشاب الذى فقد كل شيء ، فأدرك أن تلك الفتاة تحمل بين جنبيها من العواطف النبيلة ما لم يجد له مثيلا عند الأمراء والقواد والأقيال الذين تخلـــوا عنه فى الشدائد ، وان راعية الغنم الرومية اوفر احساسا وابعد شهامة من سكان القصور ، وان « نفتاليا » مخلصة له وفية ، وان الحب قد لامس قلبها ان لم يكن قد استقر فيه بعد !

فأجاب قائلا :

ــ معذرة يا صديقتى ، ان اليأس يفقدنى الصواب !

وتفتحت أساريره طربا ، عندما جاءه رد الفتاة فى نغمة حلوة داعبت مسامعه :

ــ يجب أن تطرد اليأس من طريقك ، يا حبيبى !

وصمت الاثنان لحظة ، ثم انهمرت الدموع من اعينهما ، فى عناق طويل .

وسأل الامير راعية الغنم :

ــ نفتاليا ، اتحبيننى حقا ؟

وأجابت الفتاة ببساطة وبلا تردد :

ــ نعم ، احبك ، احبك منذ الساعة التى وفدت فيها على بيت سيدى وولى نعمتى تيمورطاش ، ولقد احببتك بلا انقطاع ، ولكن فى ســــكوت وسكون ، فأنت أمير وابن سلطان وطالب عرش ، أما انا . . .

ـــ ولا تزالين الى الآن وفية لحبك هذا ، بالرغم من اننى اصبحت بائسا ، لا أمل لى فى عرش ، ولا رجاء لى فى جاه ؟

ـــ ان حبى قد تضـــاعف الآن لأنك بائس ، ولأن العرش قد أفلت منك !

بكى عيسى بن بايزيد ، بكى طويلا ولم تحاول نفتاليا منعه من البكاء . ولم تجفف دموعه . بل تركته يغسل بتلك الدموع أحزانه وآلامه ، وابتعدت عنه متسللة بين أشجار الغابة ، ثم عادت تحمل ما عثرت عليه من اثمار برية .

وخيل لعيسى أنه يصحو من حلم مزعج ، ومن كابوس كان يثقل صدره .

أكل الثمر من يد الحبيبة ، ومشى معها فى الغابة نحو نبع تتدفق مياهه بين الصخور .

وسألها ضاحكا مبتهجا :

ـــ اتعلمين الى اين اريد ان اذهب بك الآن يا نفتاليا ؟

واجابت الفتاة فورا :

ـــ نعم ، اعلم علم اليقين ؟

ـــ الى اين ؟

ـــ الى الجبال التى كنت أرعى فيها الغنم ، قبل ان اهبط الى المدن ، واسكن فى القصور !

ـــ أصبت ، هذا ما أريده ، سنعيش معا ، عند أبيك ، بين قطعان الماشية ، فى الوديان السحيقة والسفوح الوعرة والمروج الخضراء ، سنسكن فى المغاور ولن نعود الى الحواضر ابدا .

ـــ ونترك الباحثين عن متاعب الحياة والطامعين فى العـــروش ، والساعين الى المجد ، يتقاتلون ويتذابحون !

ـــ وسأرعى الغنم معك ، بدل أن أرعى شعبا فى بروصـــــة أو أدرنة !

ـــ وسوف ترى أن الرعية التى انت ذاهب اليها ، اكثر وفاء من الرعية التى فقدتها !

وصل عيسي بن بايزيد والفتاة نفتاليا الى بلدة ساتاليه ، التي على شاطىء البحر المتوسط ، والتي كان اليونانيون في غابر الازمنة يسمونها « اتاليا » وأطلق عليها العثمانيون فيما بعد اسم « اضاليه » الذى لا يزال يلازمها الى الآن .

ومن تلك البلدة الصغيرة الرابضة على الخليج الذى يحمل اسمها . واصل الشابان السير الى جبال طوروس .

ومنذ ذلك الوقت ، لم يعرف أحد شيئا عن الامير الذى حارب من أجل العرش ، وقاتل اخاه ، ومنى بهزيمتين متعاقبتين ، والذى آثر في النهاية حياة البداوة في مغاور الجبال ، على حياة الترف في قصور السلاطين .

فقد عاش عيسي ونفتاليا سعيدين ، واصبح ابن السلطان راعى غنم مثل راعية الغنم التى احبها واحبته ، فجعل منها زوجته ، واسدل بين العالم وبين سعادته ستارا لم يرفع المؤرخون اطرافه الى الآن !

السلطان بايزيد على فراش الموت في الأسر
(لرسام انجليزى)



كـــانت الخيانة قد امتزجت بدمه ، ولكن الخائن ندم وتاب ، وكان الفضل فى ذلك لابنته .

كانت « علية » الابنة الوحيدة بين خمسة اخوة ، ولكنها كانت تفوقهم ذكاء وحكمة وتقديرا للامور ، وان لم تكن أكبرهم سنا . وكانت ثاقبة البصر، قويمة الخلق . ولم تكن لتقر أباها على سلوكه الاعوج ، واتخاذه الخيانة حرفة يحترفها ، بل فنا يبرع فيه ويتقنه . وهو القائد المحنك والجندى الشجاع ! غير انها فشلت فى محاولة تقويم اعوجاجه ، وحمله على اتخاذ الصدق سبيلا ، والاخلاص مبدءا ولكن « قره جنيد » ، كان يرى غير ما تراه ابنته ، وكانت أسرته كلها ، ما عدا الفتاة الجميلة الذكية الحكيمة ، توافقه على خططه الواسعة ، وتشجعه على المضي فيها . وتشاركه فيما كان يعلق به النفس من احلام ومطامع واهداف !

كان أبناء السلطان « بايزيد » العثمانى فى ذلك الوقت يتقاتلون ويتناحرون لاقتسام السلطنة ، بعد مصرع ابيهم وهو فى اسر «تيمورلنك» التترى . وكان كل منهم يخطب ود « قره جنيد » ، ويغريه للانضمام اليه ، وتأييده فى الاستئثار بالعرش . فجعل يراوغهم ويلعب بهم ، ويسعى الى خدمة نفسه دونهم ، وقد وضع نصب عينيه هدفا صمم على بلوغه بجميع الوسائل ، المشروع منها وغير المشروع .

بدأ « جنيد » بخيانة « محمد » ، أحد الاخوة المتخاصمين ، فاستقل بالحكم فى مدينة أزمير ، وجعلها قاعدة لامارة أعلن نفسه أميرا عليها . ولكن « سليمان » ـ أخا « محمد » ـ هاجمه فيها ، حتى اذا ما شعر « جنيد » بأن الدائرة ستدور عليه ، خرج من المدينة وحده ، ووضع فى عنقه حبلا دلالة على الاستسلام . وذهب الى سليمان يعرض عليه الطاعة . فعفا عنه وتركه فى مدينته يحكمها باسمه .

وسقط سليمان قتيلا ، وقتل أيضا موسى واختفى عيسى ، ولم يبق غير « محمد » فآل اليه العرش . ولكن « قره جنيد » كان قد حصن ازمير ورفع أسوارها ، فأعلن العصيان ولم يعترف بسيادة السلطان الجديد ، وعقد محالفة مع « قرمان » وهو قائد طموح مثله ، يحلم بانشاء امارة يقتطعها من جسم السلطنة ويتربع على عرشها .

وزحف السلطان الجديد « محمد الاول » على القائدين العاصيين ، بعد ارتقائه عرش آل عثمان بسنتين . فانتصر على « قرمان » في معركة دامية ، ولكنه عجز عن الفوز بحليفه « جنيد » ، الذى اعتصم فى مدينته واعتزم المقاومة الى النهاية !

***

وعمد السلطان الى التحايل لاستمالة القائد العنيد ، فأوفد اليه كبير اعوانه ، « بايزيد باشا » ، للتفاهم معه . وتم الاتفاق بين السلطان وبايزيد على ان يطلب هذا من جنيد أن يزوجه ابنته الوحيدة ، وأن يكون ذلك الزواج بمثابة عهد صداقة ووئام بين الاسرتين ، توطئة للتحالف بين جنيد وصاحب العرش ، وتصفية للخلاف الناشب بينهما . .

وصل « بايزيد باشا » أمام أسوار أزمير ، وارسل الى أميرها واحدا من أعوانه ، فاستقبله « جنيد » في قصره ، أمام فريق من أنصاره واقاربه ، فقال الرجل انه جاء موفدا من بايزيد باشا الذى ينتظره خارج الاسوار ، وانه مكلف بعرض الصلح عليه . وطلب ابنته « علية » زوجة لبايزيد باشا رسول السلطان محمد الاول وقائد جيوشه .

واستنتج « جنيد » من هذا المسلك ان السلطان خائف منه ، وان رسول السلطان طامع فى ماله عن طريق الزواج بابنته ، وادرك أن فى المسألة مؤامرة للتخلص من مقاومته فى الحاضر . والقضاء على حياته فى المستقبل ، فنادى أفراد أسرته جميعا ، أمه وزوجته وأبناءه الخمسة وابنته الوحيدة « علية » وعلى مسمع منهم . وأمام الاعوان والانصار والاتباع الذين حشدهم فى قاعة القصر الكبرى . قال بصوت جهورى ولهجة مشبعة بالتهكم ، مخاطبا رسول بايزيد : « ساعطيك الرد الشافى على رسالتك ايها الرجل » .

قال ذلك ، والتفت الى واحد من عبيده وقال : « تقدم ايها العبد ! »

وعاد جنيد يخاطب الرسول قائلا :

« ان ردى على طلب سيدك بايزيد باشا وسيد سيدك السلطان محمد ، اننى اخترت هذا العبد زوجا لابنتى ! فعبد جنيد احب الى قلبه من أعظم العظماء وأشهر القواد عند السلطان ، فعد بهذا الرد الى من اوفدك الى ، وقل للقوم اننى أرفض محالفتهم ، واحتفظ بابنتى زوجة لعبدى ! »

ثار ثائر السلطان لهذه الاهانة ، وغلت مراجل الحقد في صدر قائده بايزيد باشا لما لحق به من احتقار وامتهان . فقرر الاثنان استئناف الحرب وحصر كل جهودهما في اقتحام أسوار أزمير ودك حصونها وتخريب وكر ذلك النسر الشرس العنيد . كما غضبت « علية » بنت جنيد . الفتاة الجميلة الذكية النبيلة . للمعاملة التي عاملها بها أبوها ، ورفضت ان تتزوج عبداً من عبيدها . فرضه عليها أبوها نكاية بأعدائه . وامعانا في تحقيرهم ، وان كان في ذلك تحقير لها !

ولكن « جنيد » أرغم ابنته على الاستسلام للزوج الذي أراده لها ، فازدادت نقمة الفتاة . ونشأ في صدرها حقد على الزوج وعلى الأب معا . ثم شمل الحقد الأسرة كلها ، لان الأم والاخوة الخمسة والجدة أم جنيد . تكاتفوا جميعا على التنكيل بالفتاة وتنفيذ رغبة الاب وارادته !

وبيتت الفتاة أمرا .

فقد تغلبت جيوش السلطان على الحاميات المنتشرة في القلاع حول المدينة . وتزعزعت الاسوار منذرة بالانهيار . وشعر « جنيد » مرة أخرى بأنه سائر الى هزيمة لاشك فيها ، وأنه هالك لامحالة . فأوفد الى السلطان . في مخيمه على مقربة من المدينة . أمه وزوجته وأبناءه الخمسة وبعض أنصاره المقربين ، لكي يسترحموا صاحب العرش . ويطلبوا منه العفو عن صاحب ازمير مقابل تسليم المدينة والرحيل الى حيث يريد السلطان من جنيد أن يرحل .

***

وكان « محمد الأول » طيب القلب ، صافي النية ، ينفر من الخصام وسفك الدماء . فرحب بوفد عدوه ووافق على ما عرض عليه . ودخل على رأس جيشه الى المدينة بعد أن فتح له جنيد أبوابها وأمر بأن تدك الاسوار وتهدم الابراج .. وفي القاعة التي استقبل فيها من قبل صاحب أزمير رسول القائد بايزيد باشا . استقبل السلطان محمدالأول خصمه الخاضع التائب ، وحوله أفراد أسرته وأعوانه .

وعفا عنهم جميعا ، وخاطبهم قائلا :

ــ ان الملك الصالح يغزو قلوب رعيته بالحلم والصبر واللطف وكرم الاخلاق . وهو غزو أوثره ألف مرة على الغزو بالسيف والرمح ، وعلى اخضاع القلوب بالقسوة والعنف . فأنتم جميعا أحرار فاذهبوا الى حيث تريدون . ولا أطلب منكم غير أمر واحد . وهو أن تقسموا لي أنكم لن

واراد بايزيد ان يعود فيستأثر لنفسه بالمرأة التي رغب فيها زوجة وهي فتاة فأصبح محروما منها وكانت من نصيب غيره ، ثم اصبحت من جديد في متناول يده . ولكن « علية » رفضت اجابته الى رغبته ، قائلة انها خاصمت اباها لانه تصرف بها تصرفه بسلعة تباع في الاسواق ؛ وهي تأنف الآن أن يتصرف بها القائد قاهر أبيها بالطريقة نفسها !

وهكذا الحق الزوج «اودولاس» بفوج الخصيان فيقصور بايزيد . والحقت الزوجة « علية » بالوصيفات في قصور السلطان .

***

اقام « قره جنيد » في المنفى ببلاد « الصرب » ثلاثة اعوام ؛ لم يسمع عنه السلطان محمد الاول في خلالها شيئا . واعتقد أن الرجل تاب عن الخيانة ، وانه لن يعود الى ما الفه من عصيان وتمرد . ولكنه كان مخطئا في اعتقاده .

ففي سنة ١٤١٨ ميلادية . الموافقة لسنة ٨٢١ للهجرة . ظهر « جنيد » مرة اخرى في ميدان الفتن والتآمر . وكان ظهوره في هذهالمرة بجانب رجل آخر اشد خطرا منه على السلطان وعلى العرش ! فقد اتفق مع مغامر لا يعرف احد من اين جاء ، واقنعه بأن يدعي أمام الشعب انه « مصطفى » شقيق السلطان ، الذي ظنه الناس ميتا منذ سنوات مضت اعتقادا منهم بأنه قتل في معركة انقرة مع التتر ؛ على حين انه كان في الواقع أسيرا فقط في أيدي التتر ، ثم فر من الاسر وجاء يطالببعرش أبيه ؛ لأنه اكبر سنا من محمد الاول !

ونشبت حرب اهلية في اطراف السلطنة ؛ وتولى جنيد قيادة الاتباع الذين التفوا حول « مصطفى » المطالب بالعرش . وتولى بايزيد باشا ايضا قيادة الجيوش الباقية على ولائها لمحمد الاول .

وعزمت « علية » بنت جنيد أن تقدم على محاولة اخيرة ، لحمل أبيها على العدول عن خيانة جديدة تضاف الى سلسلة الخيانات التي اقترفها من قبل ، ونال العفو بعد كل منها . فالتحقت متخفية بجيش بايزيد باشا الزاحف للقاء جيش جنيد ، وخرجت ليلا من المخيم قاصدة الى حيث يضرب أبوها مضاربه ، على أمل أن تلقاه بعد ذلك الفراق الطويل ؛ وتلقى بنفسها على قدميه ، وتغمرهما بالدموع ؛ وتتوسل اليه بألا يقابل الحسنة بالاساءة ، والوفاء بنكران الجميل . والخير بالشر !

ولكن علية لم تصل الى جنيد : فقد رشقها الحراس بسهامهم قبل أن

تتخطى حدود المعسكر ، وهالهم أن يكون الغريب الذى قتلوه امرأة ، فحملوا الخبر الى قائدهم ، وحملوا معه الجثة مضرجة بدمها ، فاذا بجنيد يعرف ابنته ، ويدرك بثاقب بصيرته السبب الذى من أجله غامرت المسكينة بحياتها . فتولاه الاضطراب ، وتشاءم مما حدث ؛ ورأى فيه نذيرا من الغيب بأن هذه الخيانة ستبوء بالفشل مثل غيرها ، وان هذه المرحلة من مراحل حياته المملوءة بالمآسي والفواجع ، ستكون الأخيرة !

***

ولم يكن جنيد مخطئا فى مخاوفه . فقد هزم فى المعركة شر هزيمة ، وهزم معه « مصطفى » المطالب بالعرش .

غير أن السلطان محمد الاول - الذى جعل الرفق والرحمة أساسا لمعاملاته مع الناس ، أيا كانوا وأيا كانت أغراضهم ، لم يعدل عن الخطة التى رسمها لنفسه ، ولم يعمد فى هذه المرة أيضا الى الانتقام ، بل ان جنيد هو الذى عدل عن خطئه . وثاب عن مسلكه .

فقد عفا عنه محمد الاول وطلب اليه أن يختار المكان الذى يريد ان ينهى حياته فيه . فقال جنيد : انه يرغب فى قضاء البقية الباقية من أيامه فى دير من أديرة النصارى ، فأرسله السلطان الى حليفه صاحب جزيرة ليمنوس ، حيث حل الخائن التائب فى دير العذراء ، ولم يخرج منه قط منذ ذلك اليوم ، وفيه وافاه أجله بعد عامين . وبعد عامين آخرين ، أى فى سنة ١٤٢١ ميلادية ، الموافقة لسنة ٨٢٤ للهجرة ، مات محمد الاول فى مدينة ادرنة ، فى السادسة والاربعين من العمر ، بعد ملك دام ثمانية أعوام .

أما علية بنت الخائن ، فكان السلطان قد أمر بدفنها فى المكان الذى قتلت فيه ، واقامة سبيل للماء على قبرها ، ولا تزال آثار ذلك السبيل باقية الى الآن ، فى خليج سلانيك ، ببلاد اليونان !



كثيرا ما تحكمت المــرأة فى مصير الامبراطوريات والممالك ، فضلا عن مصير الأفراد ، منذ أن وجدت الخليقة !



السلطان محمد الثاني يدخل القسطنطينية
فاتحا في سنة ١٤٥٣ م = ٨٥٧ هـ .

عبثا حاول الامبراطور قسطنطين الحادي عشر ان يستنهض همم الشعوب الغربية ، وعبثا كرر الاستنجاد بملوك أوربا وأمرائها ليسرعوا اليه ويشدوا أزره في الدفاع عن عاصمة أمبراطوريته وانقاذها من الغزو فقد خذلته الشعوب وخذله الامراء والملوك . ولم يرفق بحاله غير حفنة من أبناء جنوى والبندقية . وكانتا في ذلك الوقت امارتين مستقلتين . تملكان اسطولين يبسطان سلطانهما على البحر المتوسط .

أما القسطنطينية . عاصمة الامبراطور . فقد هرعت اليها البقية الباقية من الحاميات الرومية التي انتزعت منها الجيوش العثمانية الغازية حصونها ومعاقلها ، فتجمع منها لدى الامبراطور الحائر المرتبك جيش لا يزيد عدده على عشرين الف مقاتل . اذا اضيفت اليه النجدات الوافدة من بلاد المورة ومدينتي جنوى والبندقية ، وماذا يستطيع جيش هذا عدده — وقد هبطت روحه المعنوية بسبب ما حل به من هزائم ونزل من أهوال — أن يصنع تجاه جيش كبير منتصر ، يبلغ عدده مائة الف مقاتل أو اكثر ، ويقوده شاب بسم له الحظ ورافقه الفوز من ميدان الى ميدان ، يجلس على عرش آل عثمان . وقد عزم عزما صادقا على ان ينتزع من الروم عاصمة دولتهم ، ويجعلها عاصمة لملكه ؟

ذلك الشاب هو السلطان محمد الثاني . الذي لم يكن بعد قد تخطى الثالثة والعشرين من العمر ، فقد ولد في سنة ١٤٣٠ للميلاد ، الموافقة لسنة ٨٣٣ للهجرة وخلف أباه مراد الثاني في سنة ١٤٥١ للميلاد ، الموافقة لسنة ٨٥٥ للهجرة . وبعد أن وطد قدميه في البقاع التي حول القسطنطينية ، قرر مهاجمة المدينة للقضاء قضاء نهائيا على الامبراطورية الرومية الشرقية .

***

وكان ذلك في ربيع سنة ١٤٥٣ للميلاد ، الموافقة لسنة ٨٥٧ هجرية .

أما قسطنطين الحادي عشر ، من أسرة «باليولوغوس» ، والمعروف في التاريخ باسم « دراكوزيس » فكان في الثالثة والاربعين عندما تولى

العرش فى سنة ١٤٤٨ ، وفى الثامنة والاربعين عنـــدما واجه وثبة الجيوش العثمانية على عاصمته . فى عام ١٤٥٣ كان مقدرا له ان يكون خاتمة القياصرة الروم فى الدولة الشرقية !

طوق « محمد الثانى » مدينة القسطنطينية بجيشه برا ، وحاول أن يسد عليها المنافذ بحرا ليمنع وصول النجدات والمؤن الى حـــاميتها . ولكن سفنه الصغيرة المفتقرة الى قيادة مجربة ، لم تستطع صد الأسطول الجنوى المؤلف من خمس سفن ضخمة تحمل سلاحا وزادا وخمسمائة من الرماة ، فاقتحم هذا الاســـطول مضيق الدردنيل ووصـــل الى ميناء القسطنطينية سالما .

وكان جماعة من الغربيين يحاربون فى صفوف العثمانيين مدفوعين بحقدهم على امبراطور الروم ، وبينهم فريق من البلغاريين والايطاليين ، وكان لقائد بلغارى ممن يعتمد عليهم محمد الثانى أخت تدعى « صوفيا » قصت ذات يوم على السلطان العثمانى قصة القائد الصليبى « رينو دى شاتيون » الذى نقل سفنه قطعا مفككة بطريق البر من ارض الاردن الى خليج العقبة ، فى عهد السلطان صلاح الدين الأيوبى ، ثم جمعهـــا من جديد واطلقها فى البحر الاحمر لمهاجمة ساحل الحجاز . فعزم السلطان العثمانى على أن يكرر فى حصار القسطنطينية ما صنعه ذلك القـــائد الصليبى ، وعمد الى نقل سفنه بطريق شقه رجاله خلال التلال والكثبان والوديان ، خلف ضاحية « بيرا » وصحا الروم ذات يوم فاذا بهم يجدون الأسطول العثمانى داخل ميناء عاصمتهم . وقد استعد للقتال !

وادرك قسطنطين أن حالته تسوء يوما بعـــد يوم ، بل لحظة بعد لحظة ، فعمد من ناحية الى خزائن الدولة . وجعل يغترف منها بلا حساب ، ويغدق الاموال ذات اليمين وذات الشمال ، على أمل أن يتمكن من احداث ثغرة فى صفوف المهاجمين بفضل الخيانة وشراء الضمائر . ما دام لم يعد فى وسعه ان يحدث تلك الثغرة بقوة السلاح . !

***

وبحث « قسطنطين » عن المـــرأة . لان المـــرأة كانت منذ نشــأة الامبراطورية تلعب فى جميع المناسبات الحرجة دورا لا يقل اهمية عن أدوار الرجال ، بل ان المرأة كثيرا ما تحكمت فى مصير تلك الامبراطورية العجيبة ، فرفعتها أحيانا الى أوج العلا، وهبطت بها أحيانا الى الحضيض.

فى خلوة منعزلة ، داخل بيت يشرف على البوسفور ، جلســـت الأختان تتباحثان وتتناقشان وتتآمران .

الأولى اسمها « فانا » وهى كبرى الشقيقتين . ســمراء ممتلئة الجسم عليها مسحة من الخشونة . والاخرى اســمها « اغاثا » شقراء نحيلة القوام ناعمة الاطراف تبدو هادئة ساكنة . وقد أرادت الاقدار للأختين مصيرين مختلفين . فالأولى تزوجت رجلا من « جنوى » دخل فى خدمة الامبراطور واصبح ربانا لسفينة من سفنه والأخرى احبت رجلا عثمانيا فتزوجته فى مدينة بورصة ، ورافقته فى روحاته وغدواته ، وظلت معه عندما أصبح من المقربين الى السلطان محمد الثانى . وهكذا فرقت الحوادث بين الأختين الروميتين ، فواحدة أصبحت زوجة «فيليب الجنوى» القائد البحرى التابع للامبراطور قسطنطين . والأخرى اصبحت زوجــة للقائد « على باشا » العثمانى الذى اصبح فى سنة١٤٥٢وزيرا للسلطان محمد الثانى . وزوج الاولى ، كزوج الاخرى ، ممن يحبون المال ويضحون فى سبيله بكل شىء . فلا هذا مخلص وفى للسلطان ، ولا ذاك مخلص وفى للامبراطور . أما الاختان ، فكل ما ترغبان فيـــه ، أن تساعدهما الظروف والاحوال على توفير ما يكفى من مال لحمل الزوجين على ترك الخدمة عند هذا الفريق أو ذاك ، والرحيل عن أرض أصبحت مسرحا دائما للحروب والغزوات ، وقضاء البقية الباقية من الحيــاة فى ركن هادىء من أركان الشرق أو الغرب على السواء .

ودار الحديث حول هــــذا كله فى تلك الخلوة التى جمعــت بين الأختين . فقالت « فانا » :

ــ اسمعى يا اغاثا ، لقد قابلت الامبراطور صباح اليوم واعطانى ما وعدنى به من مال لأحمله اليك : ثلاثة أكياس فى كل منها مائة قطعــة من الذهب . واذا اضفت الى ما سبق لك أخذه من قسطنطين ، فيكون مجموع ما دفعه لك صاحب القسطنطينية الف ومائتين من الذهب الرنان وهو على استعداد لأن يدفع لك أيضا اضعاف هذا المبلغ ، اذا قام زوجك على باشا بتنفيذ ما طلبه منه الروم . ونحن متفقون جميعا ، أنت وزوجك ، وأنا وزوجى ، على أن ما يهمنا من هذه الحرب الطاحنة هو ما تجنيه من فائدة ونجمعه من ثروة ، وسواء عندنا أن ينتصر العثمانيون ويهزم الروم أو يفوز هؤلاء ويهلك اولئك !

وقالت اغاثا :

ــ ان زوجى لا يزال على العهد الذى قطعه لامبراطور الروم ، فقد أعد عدته لتعطيل المدافع التى نصبها السلطان تجاه الاسوار من ناحية الباب المعروف باسم « الباب الخشبى » واذا ما تعطلت المدافع ، وعلى

الخصوص ذلك المدفع الضخم الهائل الذى تكفى قذائفه وحدها دك اى حصن من حصون المدينة ، فان الهجوم من هذه الناحية سيكون نصيبه الفشل ، ومن يدرى ؟ فقد تتاح الفرصة ، فى اثناء الهجوم ، لكى يثب واحد من رجال على باشا فيضرب السلطان نفســه ضربة قاضية ، أو يرشقه بسهم يكون فيه فصل الخطاب . !

ــ وهذا ما يرجوه قسطنطين ، ولكن ، ماذا يطلب منا السلطان نفسه ؟ .

ــ لقد نفذت الخطة التى وضعناها معا بدقة وسرعة . فنحن نأخذ مالا من الامبراطور بوساطتك انت ، ونأخذ مالا من السلطان بوساطتى انا ونخدم هذا ونخدم ذاك فى آن واحد !.

ــ بل نخون هذا ونخون ذاك فى وقت واحد ، هذا ما تقصدين !

ــ نعم ، هذا ما اقصد ، وهى لعبة خطرة ، قد يكتشفها الامبراطور أو يفطن اليها السلطان ، فيضيع علينا كل شيء ونكون قد سعينــا الى حتفنا بظلفنا .

ــ ان هؤلاء الرجال اغبياء اكثر مما تظنين ، ومكر المراة ودهاؤها يجعلان من اذكاهم دمية بين يديها تلعب بها كما تشــاء ، فلا تخافى ولا ترددى .

ــ لست خائفة ولا مترددة . ولكننى ما زلت عنــــد الراى الذى افضيت به اليك امس : وهو ان يكون هذا الذى نصنعه الآن آخر ما نقدم عليه من مغامرات وخيانات ، وان نرحل غدا ، أنت وانا ، وزوجك وزوجى ، ونبتعد عن هذه المدينة قبل أن يقرر مصيرها النهائى فى ميدان القتال . وأرى ان نذهب الى احدى الجـــزر ، ثم ننتقل منهــا الى مصر أو الى ايطاليا .

ــ ان فيليب على استعداد للرحيل فى الحال . وما عليك الا أن تخرجى الليلة كالمعتاد ، وتتصلى بزوجك ، وترسمى معه خطة الهرب ، ولكن بعد أن ينفذ ما وعد به من تعطيل المدافع ، لكى نحصل من الامبراطور على مبلغ آخر من المال .

ــ أما عندك أخبار جديدة ينبغى أن ابلغها السلطان ؟

ــ نعم ، عندى خبر على جانب عظيم من الاهميــــة : ان السفن العثمانية ، كما تعلمين ، قد رست الآن فى داخل مرفأ « القرن الذهبى »

اى فى قلب الميناء وقد وضعت مساء أمس خطة ترمى الى احراق هذه السفن فى الليلة القادمة وسيقدم على هذه المجازفة القائد الجنوى « جستينيفى » فى سفينة اعدت لهذا الغرض . وسيباشر جستينيانى تنفيذ خطته بعد غروب الشمس بساعتين . وزوجى واحد من عشرات الرجال الذين وقع عليهم الاختيار للاشتراك فى هذه المغامرة . ولكنه سيتخلف عن الصعود الى السفينة ، وينتحل لذلك عذرا لم يبح به الى فاحملى هذا الخبر الى زوجك ، وليبلغه الى السلطان . لكي يتخذ الحيطة ويعد العدة لاحباط هذا الهجوم ، الذى لو نجح لكان فيه القضاء على الاسطول العثمانى فى داخل الميناء ، كالفار فى داخل المصيدة !

— هذا خبر مدهش حقا ، وستتضاعف ثقة السلطان فى زوجى عندما يطلعه عليه . مما يسهل علينا فيما بعد تنفيذ ما عهد به الينا الامبراطور بتنفيذه !

— نعم ، نضحك على هذا ونضحك على ذاك . ونأخذ اموال الاثنين معا .. !

وتعانقت الاختان الخائنتان ، وافترقتا على موعد للقاء مقبل .

***

كيف كانت أغاثا زوجة على باشا الرومية تخرج من المدينة وتعود اليها بدون أن يعترض طريقها أحد من الجانبين ؟ وكيف كانت الأختان تلتقيان ، ثم تفترقان ، وتتصلان بالزوجين الخائنين مثلهما : واحد فى مركز قيادة الروم ، وواحد فى مركز قيادة العثمانيين ؟ وكيف كانتا تضعان الخطط الدقيقة لنقل أخبار كل من الفريقين المتحاربين الى الفريق الآخر ، وتضطلعان بهذه المهمة المزدوجة ، ولا تثيران الشكوك لا عند هؤلاء ولا عند أولئك ؟ هذا هو سر المرأتين الداهيتين فانا واغاثا الروميتين .

فقد خرجت سفينة جستينيانى من مربضها فى الموعد المقرر لخروجها — وجستينيانى قائد البحارة والرماة من أبناء جنوى — واتجهت نحو الأسطول العثمانى الذى نقله محمد الثانى برا الى داخل القرن الذهبى . وكانت السفينة محملة بالمواد المتفجرة والملتهبة . ولكن العثمانيين كانوا على علم بما بيته لهم القائد الجنوى . وذلك بفضل التحذير الذى وصل اليهم فى الوقت المناسب . والذى حملته اغاثا الرومية الى زوجها على باشا . ولهذا ، فان مغامرة الجنوى الباسل أسفرت عن فشل ذريع ، فاحترقت سفينته بدل ان يحرق الاسطول

العثمانى ، وغرق رجاله ولم يتمكن هو نفسه من النجاة الا بأعجوبة . فعاد الى الشاطىء سباحة . وفترت همته منذ ذلك الوقت ، وداخله اليأس وارتبكت قيادته للمقاتلين . وانتهى الأمر بأن هجر الصفوف وهرب من المدينة طلبا للنجاة .

أما على باشا ، فقد لعب أيضا دوره المزدوج ، وبعد أن خان الامبراطور عملا بنصيحة زوجته . خان مولاه أيضا فعمد الى تعطيل المدافع تجاه الباب الخشبى . ولكن السلطان امر بأن يهاجم المشاة ذلك الباب ويقتحموه ويحطموه بالفئوس .

وتدفقت جيوش العثمانيين على الاسوار وتكدست اشلاء القتلى فاتخذ الاحياء من جثث الاموات سلما لتسلق تلك الاسوار المنيعة ، ووثب بحارة السفن الراسية فى القرن الذهبى الى وسط المدينة ، وفى التاسع والعشرين من شهر مايو سنة ١٤٥٣ للميلاد – الموافقة لسنة ٨٥٧ للهجرة – سقطت مدينة القسطنطينية فى قبضة العثمانيين ودخلها محمد الثانى فاتحا منصورا . وكان ذلك اليوم المشهود حدا فاصلا بين حقبتين من التاريخ . وقتل الامبراطور والسلاح بيده .

ووقع هذا الحادث العظيم بعد مضي ٢٢٠٥ أعوام على انشاء الامبراطورية الرومانية فى الغرب ، و ١١٢٣ عاما بعد انشاء الامبراطورية الرومية فى الشرق .

***

ثلاثة أسماء لثلاث نساء ! فخلف حصار القسطنطينية وسقوطها وعلى هامش التاريخ ، دونت تلك الاسماء الثلاثة ، ولعبت كل من النساء الثلاث دورها .

الاولى « صوفيا » البلغارية التى افضت الى محمد الفاتح بفكرة نقل سفنه برا من البحر الى داخل ميناء القسطنطينية . فنفذ السلطان فكرتها وعمل برايها فكان ذلك سببا من أسباب فوزه .

والثانية « فانا » الرومية زوجة فيليب الجنوى ، التى اقنعت زوجها بخيانة سيده الامبراطور طمعا فى المال الذى اغدقه عليه السلطان .

والثالثة « اغانا » الرومية اخت فانا وزوجة الوزير العثمانى على باشا ، التى حملت زوجها على خيانة مولاه السلطان ، طمعا فى المال الذى أغدقه عليه الامبراطور قسطنطين .

ولكن خيانة المرانين ، وخيانة الزوجين ، لم تبقيا مكتومتين ، فقد اكتشف الامبراطور خيانة القائد الجنوى فيليب نشنقه على أســــوار المدينة .

واكتشف السلطان خيانة على باشا فخنقه بيده فى مســاء اليوم الذى دخل فيه العاصمة الرومية .

أما المرانان ، فقد قتلنا بيد جندى تركى وجدهما مختبئتين فى بيت فيليب الجنوى ، ومعهما كيس من الجلد وضعتا فيه الثروة الطائلة التى استولتا عليها من الامبراطور والسلطان معا . وقد أمر محمد الفاتح بتوزيع ذلك المال على البحارة العثمانيين ، الذين هاجموا المدينة من داخل القرن الذهبى . وعلقت جثتا « فانا » و « أغانا » على الاسوار وتركتا عليها طعمة للجوارح ! . .



الإنكشارية ـ يني تشيرن ـ اشهر جنود السلاطين



حاولت الجارية الوفية أن تنقذ حياة الرجل الذى انقذ حياتها ، ففشلت ، ولحقت به الى عالم لا يتحكم فيه الطغاة الأجلاف !

ـــ لقد أنقذتني من العار أولا ، ومن الموت ثانيا ، أيها الرجل النبيل والسيد المطاع . وليس لي في هذه الدنيا أب ولا أم ولا زوج ولا أسرة . فما نفع الحرية التي تنعم بها علي ؟

ـــ ماذا تريدين اذن ؟

ـــ البقاء في كنفك ، خادمة بين الخادمات ، أو جارية بين الجواري، أو أسيرة بين الأسيرات ! .. فحياتي ملك لك لانك انتزعتها من مخالب الهلاك !

ـــ اتبعيني اذن ، وليكن لك ما تريدين !

كانت المتكلمة امرأة في نحو الخامسة والعشرين من العمر ، ذات سمرة تقرب من السواد ، قوية البنية ، تبدو على وجهها دلائل الصحة والعافية والاقدام .

وكان المستمع اليها رجلا من رجال القصر المرهوبي الجانب ، الواسعي الشهرة ، تخضع له الشعوب وتنقاد لأوامره لانه ينطق باسم صاحب العرش ويحكم بالنيابة عنه : ذلك الرجل الذي يحبه الناس ويخشونه في آن معا ، هو الوزير الأكبر ، والصدر الأعظم « قره مصطفى » أو مصطفى الأسود !

فقد كان في ذلك الوقت مارا بأسواق الآستانة متنكرا كعادته ، فرأى جماعة من النخاسين يسوقون أمامهم قافلة من العبيد والجواري ، وكان واحد من أولئك القساة الأجلاف يضرب امرأة عجزت عن اللحاق برفاقها ورفيقاتها ، فوثب عليه الوزير قره مصطفى ، ولفحه بسوطه على وجهه ، وأنقذ المرأة من بين يديه ، ونقده ثمنها ذهبا ، وأمر الجند بأن يسوقوه الى السجن .

وحفظت الاسيرة له صنيعه ، فرجته أن يحتفظ بها ، والا يعيد اليها الحرية لانها لاتعرف ماذا تصنع بها !

أما المرأة ، فاسمها « فاكهة » وهي لا تعرف من أمرها غير أنها

بيعت في أسواق الرقيق طفلة صغيرة ، وان بائعيها جاءوا بها من الحبشة أو السودان ، فانتقلت من يد الى يد . . .

واخذ « قره مصطفى » الجارية « فاكهة » معه الى قصره ، حيث التحقت بمن فيه من خدم وعبيد ونساء . .

***

كان السلطان ابراهيم الاول ، ابن السلطان أحمد الاول ، قد تسلم عرش آل عثمان في سنة ١٦٤٠ ميلادية — الموافقة لسنة ١٠٤٩ للهجرة — خلفا لاخيه مراد الرابع . ولم يكن ذا رغبة في قيادة سفينة الدولة بنفسه ، فترك الأمر والنهي لأمه السلطانة الوالدة « كوسم » التي عهدت الى قره مصطفى ، أو مصطفى الأسود ، بمنصب الصدارة العظمى .

وكان قره مصطفى من أصل هنغاري ، ثم اعتنق الاسلام وهو في ريعان الشباب ، وعمل جنديا بسيطا في فرقة « يني تشيري » أو الانكشارية ، وارتقى من رتبة الى رتبة حتى بلغ الذروة . . .

وقد قبض هذا الداهية الشجاع على مقاليد الامور بيد من حديد، فأعاد تنظيم الادارة والجيش والمالية ، وهزم أعداء الدولة العثمانية في الحروب ، واسترجع ما فقده أسلافه من ممتلكات وراء البحار ، وضمن العدالة والانصاف للشاكين والمظلومين ، ووضع حدا للسرقة والرشوة وابتزاز أموال الرعية . ولم يكن هذا مما يرضي الولاة وعمال السلطان في المدن والأقاليم القريبة والنائية ، فتآمروا عليه ، وراحوا يدسون له في الخفاء ، ويوغرون صدر السلطان الشاب عليه ، للتخلص منه .

ودخل عليه ابراهيم ذات يوم ، وهو في مداولة مع وزرائه ، وانتهره قائلا :

— لقد طلبت منك احضار الخشب اللازم لحريم القصر في هذا الشتاء . وقلت لي ان خمسمائة مركبة محملة خشبا في طريقها الى العاصمة . وقد مر شهر كامل ولم تصل المركبات بأخشابها بعد . فهل بلغ بك الاستهتار بحريم السلطان الى هذا الحد ؟

فوقف الصدر الاعظم وأجاب بصوت هادىء :

— أيها المولى المعظم المطاع . ان الدولة معرضة لأخطار جسيمة ،

وامامنا من الأمور الهامة ما يسترعى التفاتنا اكثر من اخشاب الحريم فى هذا الشتاء !

وأدار السلطان ظهره ، وانصرف غاضبا !

وانب الوزراء رئيسهم على مخاطبة ابراهيم بتلك اللهجة ، فأجابهم قائلا :

ـــ أما كان الدافع الى ذلك ما أحمله له فى صـــــدرى من محبة واجلال ؟ لقد قلت له الحقيقة ! افكان يجب على ان اعمد الى التزلف . فأكذب واتملق ؟

وهمس وزير فى اذن آخر :

ـــ اخشي أن يكون هذا اليوم آخر ايام الرجل الحر الشريف !

ولم يكن الوزير مخطئا فى ظنه .

فقد كان ذلك اليوم فى الواقع آخر ايام مصطفى الأسود !

***

طلعت شمس اليوم التالى ، فاذا بالسلطان يدعو الصدر الأعظم للمثول بين يديه ، فلبى قره مصطفى الدعوة ، واسرع الى قاعة العرش حيث كان ابراهيم فى انتظاره ، وحوله زمرة من زبانيته المخصصـــين لاغتيال من تحل به نقمة البادشاه !

وادرك الصدر الأعظم ان ساعته قد دنت . ولكنه تجالد ووقف يناقش مولاه فى كل كبيرة وصغيرة من التهم التى وجهها اليه وكلها تهم مختلقة كاذبة .

وصاح ابراهيم فى النهاية مقاطعا وزيره :

ـــ انت خائن ومخادع . وسوف اجد من هو أجدر منك للاضطلاع بشئون الدولة ... اين ختم الصدارة ؟

فنزع مصطفى الأسود الختم من عنقه ، وانحنى باحترام ، وقدمه للسلطان بدون أن يفوه بكلمة ، ثم نهض ، وتراجع الى الباب وانصرف.

واشار ابراهيم الى زبانيته ، ففهموا الاشارة ، وتبعوا الوزير من حيث ذهب .

وكانت مهمة أولئك الزبانية أن يخنقوا المغضوب عليهم بحبال من القنب الدقيقة الصنع .

***

وصل قره مصطفى الى قصره . ولم يطلع أحدا على ما حدث له غير الجارية « فاكهة » فقد ناداها الى حجرته وقص عليها ما صنعه به السلطان :

ــ لقد قضي الأمر « يافاكهة » وعزم السلطان على قتلي . ولايدهشنى ان يكون الزبانية فى طريقهم الآن الى هذا القصر والى هذه الحجرة ، لكى يلفوا حول عنقى حبالهم ، ويخمدوا أنفاسي ، ويجروا جثتى الى الخارج ، ثم يحملوها الى قصر البادشاه ، ويثبتوا له أن الوزير الذى خدمه باخلاص قد قتل لأنه لم يكذب ولم يخن ولم يسرق !

والقت الجارية بنفسها على قدمى سيدها ، وغسلتهما بالدموع ، ثم انتفضت فجأة ، وانتصبت على قدميهـا ، وقالت بصوت ينم عن عزم واقدام :

ــ لا تستسلم لليأس يا سيدى ، ولا تدع الخوف يزعزع رباطة جاشك المهددة . وما دام القتلة لم يصلوا بعد ، فعلينا ان نسعى الى الخلاص ما استطعنا الى ذلك سبيلا . لقد فكرت فى كل شيء ، وحسبت حسابا لكل احتمال ، على حين كنت أنت منصرفا الى تدبير شئون هذه الدولة واعلاء شأنها .

ــ ماذا تعنى ؟

ــ أعنى اننى اعددت للرحيل عدته ، وفتحت فى ركن من اركـان الحريم بابا سريا ، يؤدى الى سرداب يوصل الى الساحة المجـاورة لقصرك من الخلف ! فاتبعنى لنهرب معا ، فان وفقنا الى الخروج من المدينة ، أصبحنا فى أمان ، وان لحق بنا الجند ، فتلك ارادة الله .

ونفرت من عين مصطفى دمعة مسحها بكم ثوبه ، ونهض صامتا ، ولحق بالمرأة الطيبة القلب المخلصة الوفية .

وقادته « فاكهة » الى الباب والسرداب ، وما مرت لحظات حتى كان الاثنان قد خرجا من القصر ووصلا الى الساحة حيث شـاءت الأقدار أن يكون جماعة من التجار قد تركوا اكداسا من الأعشاب اليابسة والحطب الجاف .

ولكن جنود السلطان كانوا قد أحاطوا بالمكان من كل جانب ، فاختبأ الصدر الأعظم الهارب والجارية المرافقة له وسط تلك الأكوام المتقاربة.

وتصاعد صياح الخدم والنساء فى داخل القصر !

فقد اقتحم الجند أبوابه . وحطموها بهراواتهم وانطلقـــوا فى القاعات والحجرات يبحثون عن الوزير ويروعون سكان القصر ويضربونهم ويجرون النساء من شعورهن لحملهن على ذكر المكان الذى لجأ اليه قره مصطفى .

ولم يجدوه فى داخل القصر فانتشروا فى خارجـه يســـألون ويواصلون البحث .

وعثروا عليه فى النهاية قابعا فى مخبئه . فانتزعوه منه ؛ وجـــرد الوزير سيفه ووقف يدافع عن نفسه ؛ فقتل من الجند عشرين رجلا . ولكنهم تكاثروا عليه . ثم أوثقوه وقادوه الى ميدان خوجة باشا . حيث خنقوه بحبالهم عملا بالتقاليد أمام البركة المعروفة باسم قره على !

وتركوا الجثة على حافة البركة . ونادى بعضهم بعضا ليتشاوروا فيما هم صانعون بعد أن أدوا مهمتهم .

وفجأة برزت فى الميدان امرأة جاحظة العينين محلولة الشــعر ، خيل للجند أن بها مسا من الجنون ، واقتربت من أحدهم . ونزعت منه خنجرا كان بيده . ووثبت الى حيث الجثة وصاحت مخاطبة القتيل الذى تدلى لسانه من فمه :

— لقد وعدتك يا سيدى العزيز بأن أموت فى يوم موتك ، وهأنا جئت أبر بالوعد !

واغمدت « فاكهة » النصل فى صدرها ، وسقطت على الجثة الهامدة جثة هامدة !



السلطان ابراهيم الأول



اراد البادشـــاه ان يتزوج
أضــخم امراة عرفها البشر ،
فكان له ما أراد !

كان الليل قد انتصف عندما أوفد السلطان ابراهيم أحد خصيانه المقربين الى يوسف اغا ، واحمد اغا ، وكوير اغا ، ليبلغهم رغبة مولاه فى أن يوافوه بلا ابطاء فى حجرة نومه . وأسرع الرجال الثلاثة مهرولين ، تلبية لأمر البادشاه

أما يوسف اغا، فهو أسير روسي أحبه السلطان وأعتقه والحقه بخدمته فى القصر . وأما أحمد أغا ، فهو دجال هنغارى ، عرف كيف يستحوذ على رضا السلطان ويستدر عطفه ، فالحقه ابراهيم ايضا بخدمته . وأما ثالث الثالوث ، فهو اليونانى كوير موسليوغلى المشعوذ الذى يبتلع النار ويزرع فى جسمه الدبابيس والخناجر بدون ان تسيل منه نقطة دم واحدة . والسلطان يرتاح الى مجالسة هذا القزم المهرج، وينزله فى القصر منزلة الاخصاء . وقد قطع الثلاثة كل علاقة بأوطانهم وقومهم ودينهم ، فأصبحوا مسلمين من رعايا السلطان ابراهيم الاول ، وموضع ثقته ، وأحب رجال حاشيته اليه !

أولئك هم الذين دعاهم السلطان الى حجرة نومه فى تلك الليلة . وكان ينتظرهم مرتديا ثوبا من الفرو الناعم ، وحوله سرب من الجوارى البيض ، حاملات للمباخر والقماقم ، وقد عبقت الحجرة بالروائح الطيبة والعطور النادرة .

وانحنى الرفاق الثلاثة وقبلوا الارض بين يدى سيدهم وولى نعمتهم ، وقال كوير اليونانى :

ــ نحن فى خدمة البادشاه ورهن اشارته فى كل ساعة من ساعات الليل والنهار !

ورحب بهم ابراهيم قائلا :

ــ لم يساورنى شك فى ذلك ، ولهذا ، فقد عهدت اليكم من قبل بأكثر من مهمة . وما دعوتكم الآن الا لكى أعهد اليكم بمهمة جديدة من هذا النوع .

ـــ نحن طوع أمرك يا مولاى . ومهما تكن الصعاب القائمة فى سبيل تلك المهمة ، فاننا سوف نذللها ونتغلب عليها .

ـــ اسمعوا : لقد تعبت من النظر الى هذا العدد الذى لا حصر له من النساء ، أريد شيئا جديدا ، شيئا لم تقع العين على مثله بعد فى حرم السلاطين ، ولم يتمتع به أحد فيما بعد من خلفائى !

ونظر الثلاثة بعضهم الى بعض ، بدون أن يفهموا ما يريده منهم السلطان واستطرد ابراهيم قائلا :

ـــ لا تتبادلوا النظرات فسوف تفهمون : اننى أريد منكم أن تجدوا لى امرأة تمتاز عن جميع نساء القصر ، من سرارى ومحظيات وأماء ، لا بحسنها ، ولا بجمالها ، ولا بدلالها ، ولا بشيء مما يمت بصلة الى الدلال والجمال والحسن ، بل بشيء يعده الناس فى عرفهم الأعوج من ظواهر القبح والبشاعة ، وأعده انا ، فى نظرى الخاص الى المرأة ، من أروع مستلزمات الكمال فيها !

وعاد الثلاثة الى تبادل النظرات بدون أن يفهموا ، فصاح ابراهيم بهم بصوت ينم عن الغضب : « اسمعوا الى النهاية لكى تفهموا وتدركوا وتعلموا ما أريد : ان النساء اللواتى فى القصر جميعا يخضعن لقوانين الطبيعة . والمرأة التى أتوق الى اقتنائها يجب أن تكون خــارجة عن القوانين وفلتة من فلتات الطبيعة ! »

وقال اليونانى : « بدأنا نفهم يا مولاى ! »

وواصل ابراهيم التعبير عن فكرته : « أريد منكم أن تبحثوا لى عن امرأة تكون أطول النساء قامة ، وأضخمهن جسما . امرأة يكون لها صوت كزئير الاسد ، وذراعان أصلب من الحديد ، وفخذان كهذه الاعمدة التى يقوم عليها سقف الحجرة ، وفم يبتلع الدجاجة فى لقمة واحدة . ولسان أطول من لسان البقرة ! »

قال السلطان هذا وهو يحدق البصر فى رجاله الثلاثة . فأدرك ، عندما وصل الى هذا المقطع من كلامه ، انهم أوشكوا أن يضــــحكوا ، فضحك قبل أن يسبقوه !

وفعل الثلاثة مثله . ولكنه قاطعهم مستأنفا حديثه : « قلت اننى أريد لسانها أطول من لسان البقرة ، وأضيف الى ذلك أننى أريدها كلها مثل البقرة ، وأريد أن يقول الناس فى مستقبل الايام ، وحقبة بعد حقبة :

ان السلطان ابراهيم الاول تزوج أضخم امرأة عرفها العالم من قبله ومن بعده ! اذهبوا »

***

وذهب يوسف أغا ، واحمد أغا ، وكوير موسيليوغلى ، وهم يتساءلون : « الا يزال عقل السلطان فى رأسه ، أم انطلق منه بلا أمل فى رجعة ؟ »

ولكنهم أدركوا أن عودتهم الى القصر معناها الموت الأكيد ، اذا لم يجلبوا اليه معهم أضخم النساء !

وطافوا فى أرجاء المملكة طولا وعرضا ، وهبطوا المدن وبحثوا فى القرى والمزارع والحقول ، وبثوا الأعين فى كل مكان .

وكللت فى النهاية مساعيهم بالنجاح ، فعثروا فى جبال أرمينية ، وفى أسرة رقيقة الحال على فتاة دون العشرين من العمر ، تتوافر فيها جميع الشروط التى فرضها عليهم السلطان فى الليلة التى ظنوا فيها ان ساعتهم الاخيرة قد دنت !

رفض أهل الفتاة أن يسلموها لزبانيةالسلطان فاختطفوها وحملوها الى مولاهم !

وطار ابراهيم الاول من الفرح !

فقد كانت الفتاة الأرمنية حقا فلتة من فلتات الطبيعة !

ونفح السلطان رسله الثلاثة بمكافأة عظيمة ، وقال لهم راضيا مسرورا : « انها بقرة بشرية كما أردتها ان تكون ! »

وعرفت المحظية الجديدة بين النساء والخدم ورجال الحاشية باسم « بقرة السلطان » وكانت جديرة بهذه التسمية !

فان تلك البقرة التى أرادها ابراهيم خليلة له ، على أمل ان تلد له ابنا فينعم عليها بلقب سلطانة ويعدها زوجة من زوجاته ، كانت تبلغ من الطول نحو مترين وتزن من الارطال ما يساوى فى حساب هذه الايام ثلثمائة كيلو جرام .

وقد أصدر السلطان أوامره لاعداد جناح خاص لها فى أحد قصوره، فاضطر العمال والصناع الى توسيع الابواب وتعلية عتباتها ، وصنعوا لها سريرا بحجم خمسة أسرة عادية من أسرة الحريم ، وكانت تلتهم فى

وجبة واحدة خروفا كاملا ، وتشرب « زلعة » من الماء . وخصها ابراهيم بثلاثة من الطهاة . وعشرة من الخدم ، وعشر من الجوارى . لتأمين راحتها واعداد الطعام والشراب لها .

وانصرف ابراهيم الاول بكليته الى التمتع بذلك التل المتنقل من اللحم والشحم . ونسي بين أحضان البقرة الأرمنية ، زوجته الوحيدة طرخان ومحظياته وجواريه . بل انه اتخذها دون سواها مرشدة له فى كل كبيرة وصغيرة ، وأهمل من أجلها نصائح أمه السلطانة الوالدة « قوسم » وارشاداتها ، مما جعل الأم والزوجة والمحظيات والجوارى يتفاهمن ويتآمرن على الغريبة التى جاءت تنغص عليهن العيش .

حاولت أمه أن تبعده عن تلك المرأة العجيبة ، أو أن تضعف من نفوذها عليه . فكانت النتيجة أن منح ابراهيم البقرة الارمنية ولاية دمشق وأمر بأن تحمل لقب « والى خانم ! »

وادركت السلطانة الوالدة قوسم انه لم يبق أمامها غير وسيلة واحدة للتخلص من المراة ، وهى الوسيلة التى كان الالتجاء اليها شائعا فى ذلك العصر .

***

ـــ اسمح لها يا بنى بأن تلبى دعوتى ، وانا الكفيلة بحمل جميع نساء القصر على ملاطفتها والتحبب اليها .

وصدق الابن أمه ، وسمح لحبيبته الضخمة بأن تذهب لقضاء الليل فى الجناح المخصص للسلطانة الوالدة . حيث أعدت قوسم وليمة للنساء بلا تفريق ولا تمييز .

وأكلت المدعوات وشربن هنيئا مريئا . وللمرة الاولى منذ دخولها قصر السلطان رأت الارمنية الوجوه تبتسم لها وترحب بها .

فقبيل منتصف الليل ، دخل القاعة التى جلست فيها قوسم وزوجات السلطان والمراة المحتفى بها ، عشرة من خصيان السلطانة الوالدة ، وفى يد كل منهم حبل من القنب .

واحاط بها الخصيان فحاولت النهوض ولكنها لم تستطع ، وامتدت نحوها عشرون من الايدى بحبال القنب والتفت الحبال حول ذراعيها وصدرها وعنقها ، فجأرت البقرة البشرية وملأ خوارها القاعة الفسيحة !

وانهار الجبل المتحرك على الارض كومة هامدة .

وانطلقت النساء نحو جناح السلطان صارخات باكيات . وقد حلأن شعورهن ولطمن خدودهن ، ناعيات حبيبة ابراهيم التى اسرفت فى التهام الطعام والشراب فماتت من التخمة ! .

وصدق ابراهيم امه ، وبكى الحبيبة . وحبس نفسه فى حجرته شهرا كاملا .

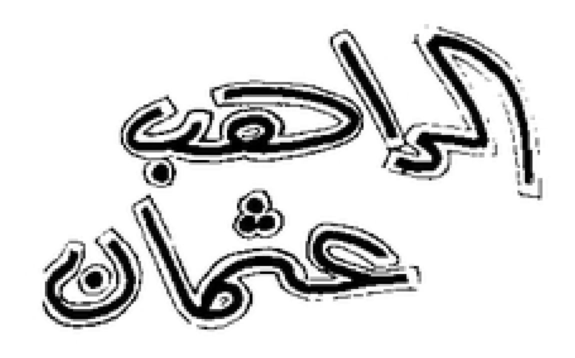
ثم بحث عن غيرها بين نسائه الكثيرات . وبين امواج الحسان التى كان النخاسون يسوقونها اليه يوما بعد يوم . فوجد ضالته المنشودة فى امرأة أخرى انسته البقرة الأرمنية التى ماتت خنقا . والتى لم يعرف العالم فى الماضي — وربما لا يعرف فى المستقبل — امرأة فى ضخامتها .

وفى سنة ١٦٤٨ ، ثار الجيش على السلطان ابراهيم . وتآمر الوزراء والعلماء مع الثائرين ، بل قيل ان السلطانة الوالدة نفسها اشتركت فى تلك المؤامرة ، فدخل الخصيان على السلطان فى حجرته . وخنقوه أيضا بحبل من القنب . عملا بالتقاليد المرعية فى قصور السلاطين !

حدث ذلك فى سنة ١٦٤٨ ميلادية ، الموافقة لسنة ١٠٥٨ للهجرة، وكان ابراهيم الاول فى الواحدة والثلاثين من العمر . ولم يمض على ارتقائه عرش آل عثمان غير ثمانية أعوام



البوسفور



عاش طفلا فى قصـــــور السلاطين ، وانقطعت أخباره في آخـــر حياته في أديرة الرهبان !

قيل أن اسمها « كوكب » وقيل « زعفران » وقيل ابنة « حب هان » فان المؤرخين القلائل الذين ذكروا اسمها ، لم يجمعوا على قول واحد ، ولكنهم اجمعوا على أنها كانت أجمل الجوارى فى قصور السلاطين ، وأبعدهن ذكاء ، وأوسعهن حيلة ، وهذا ما جعلها تقوم فى حياة السلطان ابراهيم العثمانى بدور حسدتها عليه الجوارى الاخريات ، بل حسدتها عليه زوجه الوحيدة طرخان ونساؤه العديدات .

ولم تكن هذه الجارية ملكا للسلطان بل لرئيس « الاغوات » واسمه « سوسن أغا » فان أولئك الخصيان كان لهم فى قصور الآستانة حريمهم مثل اسيادهم الجالسين على العرش ، ومثل الذين سبقوهم من الخصيان فى قصور الفراعنة وأباطرة الروم بالقسطنطينية : وكانوا يتمتعون بهذا الحق كاملا ، بل يسرفون فى اقتناء الحسان كما يسرف الاغنياء فى اقتناء التحف ، لا لغرض الا النظر اليهن ، والتفنن فى تزيينهن وتزويقهن، واتخاذهن أداة للتسلية، أو التنعم بمواهبهن كراقصات أو مغنيات أو سميرات .

ذلك كان شأن سوسن اغا مع جاريته الحسناء اللعوب كوكب ، وذلك كان شأن كوكب مع سيدها رئيس الخصيان فى قصر ابراهيم : ولنطلق عليها نحن اسم « كوكب » ما دام المؤرخون لم يفرضوا علينا اسما معينا من اسمائها الثلاثة .

وكانت « كوكب » ، عندما اشتراها سوسن من سوق الرقيق بالآستانة ، فى نحو الثامنة عشرة من العمر . فقصت عليه قصتها وقالت: انها ابنة تاجر رومى ، وانها تزوجت جنديا من جنود البندقية وقع معها أسيرا فى احدى الغزوات ، فبيعت فى سوق الرقيق . واضافت أنها على وشك ان تضع مولودا هو الثمرة الاولى لذلك الزواج الذى انتهى بالفراق.

وصدق سوسن روايتها . ولم يكن ماضى المراة ليهمه أو يشغل باله ، بل كان حاضرها ومستقبلها موضع اهتمامه وتفكيره .

ووضعت « كوكب » طفلا تبناه سوسن وعهد الى امه بارضاعه والاحتفاظ به فى الجناح المخصص له ولنسائه فى القصر .ووعدها بأنه

سيعنى بتربية الطفل ، ويعده ليكون فى مستقبل الايام ، بعد أن يشب ويكبر ، واحدا من جنود السلطان ، بل واحدا من قواد جيشه ، وانه سيسميه مثله « سوسن » ويضمن له حياة هنيئة وشهرة واسعة .

وكانت الجارية بحكم اقامتها فى القصر ، وبحكم وظيفة سيدها الجديد ، كثيرة الاختلاط بنساء السلطان وجواريه . فوقع نظر ابراهيم عليها ذات يوم وهى تلعب النرد مع بعضهن فى جناح الحريم ، وكانت تلك النظرة كافية لاثارة رغبته فى الاستئثار بها دون رئيس الخصيان !

وكان ابراهيم الأول منصرفا بكليته الى اللهو والاستمتاع بملاذ الحياة، تاركا لأمه السهر على مصالح الدولة ، وتسيير دفة الحكم . ولم يكفه أن تمج قصوره بالنساء من كل جنس ولون ، بل كان دائم البحث عن وجه صبوح جديد ، أو جسم بض جديد ، أو ضرب من المتعة جديد !

لكن حبه لسوسن اغا وحرصه على مراعاة شعوره واحساسه ، ورضاه عن ذلك الخادم الأمين المتفانى فى اخلاصه كل ذلك جعله يتلمس الوسائل الملطفة الرقيقة ، فلا ينتزع الجارية من سيدها انتزاعا بل يستدرجها اليه استدراجا .

ونجحت الحيلة . فقد دعا السلطان الى مخدعه ذات يوم رئيس خصيانه سوسن ، وقال له بلهجة ملؤها العطف والحنان :

ــ انك يا سوسن أحب الخدم الى . فلا غرابة اذن فى أن يكون لجواريك عندى منزلة خاصة . وانا شديد القلق على ابنى محمد ، الطفل المحبوب الذى رزقته من السلطانة طرخان ، والذى لا يزال رضيعا وفى حاجة الى المحبة والعناية . ولذا ، فقد خطر لى أن أعهد به الى مرضع اثق بها ، لكى تحبه وتعنى به . وتشاء الأقدار أن تكون الجارية المرضع فى كنفك أنت يا سوسن !

ــ ومن تعنى يا مولاى ؟

ــ أعنى الجارية « كوكب » ، التى قيل لى انها وضعت طفلا تبنيته أنت !

ــ كوكب ؟

ــ نعم ! هى التى اخترتها لترضع ابنى مع ابنها فهل تبخل على بذلك ؟

— انني وجواري ملك لمولاي ، يتصرف بنا كما يشاء ، فحياتنا وموتنا ومصيرنا بين يديه !

وفي اليوم التالي ، كانت « كوكب » قد انتقلت الى حريم السلطان ، لا لترضع ابنه فقط ، بل لتصبح واحدة من نسائه ومحظياته الكثيرات .

وأدرك سوسن بعد فوات الوقت ان سيده لعب لعبة جازت عليه ، وانه فقد جاريته المختارة الى الأبد . ولكن ما حيلته . وارادة البادشاه فوق كل ارادة ، وكلمته فوق كل كلمة !

وادركت السلطانة طرخان في الوقت ذاته ان ابراهيم لم يجيء بالمرضع ليريح زوجته من عناء الاهتمام بابنها محمد والسهر عليه ، بل ليحل الجارية في قلبه محل والدة الطفل . وبعدها لتكون في المستقبل سلطانة مثلها ، واما لولد قد يسلب ابنها حقه في وراثة العرش بعد أبيه .

بل ان السلطانة ادركت فوق ذلك ان ابراهيم جعل منذ الأسبوع الأول . يفضل ابن الجارية على ابنه . فعاتبته على ذلك وانبته . ولكن السلطان هزأ بها . وقال انه لا يسمح لامرأة من نسائه بان تبدي رأيا في سلوكه داخل الحريم . ومعاملته لبقية النساء . فحقدت طرخان عليه وعلى المرضع في آن معا . واقسمت أن تنتقم من الجارية انتقاما يعيد الامور الى نصابها .

وحدث مرة أن كان السلطان جالسا على ضفة بركة في حدائق القصر . وحوله سرب من جواريه ومحظياته ، يلقي بهن الواحدة بعد الاخرى في مياه البركة . ويتفرج عليهن وهن يحاولن العودة سباحة الى اليابسة . وكانت « كوكب » جالسة بجانبه وعلى صدرها ابنه محمد . يداعب ثدي المرضع بشفتيه الناعمتين الصغيرتين . في حين كان السلطان يداعب بأنامله شعرها المسترسل على كتفيها . ونزلت السلطانة طرخان الى الحديقة فرأت ذلك المنظر المثير . ولم تتمالك اعصابها فاندفعت نحو غريمتها مهددة متوعدة . فما كان من السلطان الا أن زجرها بعنف ، ثم نزع الطفل عن صدر مرضعه والقاه في الماء غاضبا مزمجرا .

وأوشك الطفل أن يغرق ، لو لم تتداركه الجواري وينتشلنه من البركة قبل فوات الوقت .

واصيب ابن السلطان وولي عهده في ذلك الحادث بجرح في

جبهته ، ظل أثره ظاهرا طول حياته ، كدليل محسوس على قسوة أبيه .

تشاور سوسن وجاريته فيما أوصلهما اليه تحكم السلطان في مصيرهما . والورطة الخطرة التى وقعا فيها ، وتآمر نساء الحريم عليهما . وعزمت السلطانة طرخان ام محمد ، والسلطانة الوالدة « توسم » أم ابراهيم . على الانتقام من « كوكب » فقال سوسن لجاريته المحبوبة ، التى لم يحمل موجدة عليها لانه ادرك أن السلطان ارغمها ارغاما على الرضوخ لارادته :

ـ لقد أصبحت حياتك مهددة في هذا القصر يا « كوكب » . بقدر ما أصبحت حياتي أيضا مهددة فيه . ولا أزال على العهد الذى قطعته على نفسي نحوك ونحو ولدك ، ولا حول لنا هنا ولا طول ، ما دامت أم السلطان وزوجته ونساء حريمه يتألبن علينا ويتآمرن على اهلاكنا في الخفاء ، فخير لنا أن نرحل ، وان نقضى بقية العمر في مأمن من الدسائس ، وفى بلد بعيد يتوافر لنا فيه الأمن والهناء .

وقالت « كوكب » والدموع تترقرق في عينيها النجلاوين :

ـ اذا كنت باقيا على العهد يا سوسن ، فكوكب أيضا باقية على عرفان الجميل . وهى ملك لك لا ملك السلطان . وان كان السلطان قد استحوذ عليها بالضغط والاكراه . فحيثما تذهب انت فسأذهب . وحيثما تعش أنت فانى سأعيش وحيثما تمت انت ادفن نفسى بقربك في التراب !

ووضع الاثنان خطة الهرب ، خطة محكمة لابد أن يخدع بها السلطان كما خدعت بالامس « كوكب » وخدع سوسن بخطة السلطان يوم اتخذ الجارية مرضعا لابنه .

فقد طلبت كوكب من ابراهيم أن يسمح لها بالسفر الى أرض الحجاز لأداء فريضة الحج ، وأن تصحب معها ابنها وسوسن رئيس الخصيان . ووافق السلطان على ذلك ولم يفطن الى أن طلب الجارية ما هو الا حيلة للتخلص من الأسر والابتعاد عن القصر بل عن الآستانة نحو الحرية .

وركب سوسن رئيس الخصيان سفينة اقلعت به من القرن الذهبى ، وعليها كوكب وابنها وجميع من كان فى حوزة سوسن من الجوارى ، وما كان يملكه من تحف ومال .

وما كادت تخرج من مضيق الدردنيل ، وتنساب بين الجزر المتناثرة

فى بحر ايجه ، حتى داهمتها السفن التابعة لفرسان مالطة ، فاشتبكت معها فى قتال مرير ، ودافع سوسن عن نسائه وأمواله بشجاعة واقدام ، ولكن السفينة لم تكن مجهزة لخوض غمار معركة بل لاجتياز البحر فى هدوء وسلام الى موانى سورية . فغلب بحارتها على أمرهم ، واستولى فرسان مالطة على السفينة وما فيها ، وأسروا رجالها ونساء سوسن والجارية كوكب وابنها الصغير .

أما رئيس الخصيان ، فقد قتل على ظهر السفينة وهو يحاول حتى النفس الاخير منع الاعداء من الصعود اليها . . .

***

وبلغ خبر هذا الاعتداء البشع مسامع السلطان ، فثار ثائره واقسم انه سيثأر لمرضع ولده ورئيس خصيانه ، ولما كانت جزيرة مالطة فى ذلك الوقت خاضعة لسيادة البندقية ، فقد أعلن السلطان ابراهيم الأول الحرب على هذه الجمهورية ، وجرد جيشا وأسطولا لمهاجمة ممتلكاتها ، وبدأت الحرب بين الدولة العثمانية وجمهورية البندقية فى صيف سنة ١٦٤٥ ميلادية ، الموافقة لسنة ١٠٥٤ للهجرة ، وانتهت بعد بضعة أعوام بانتصار العثمانيين على أعدائهم انتصارا رائعا .

وكان السلطان ابراهيم الاول ، عندما أعلن الحرب على البندقية بسبب ذلك الحادث ، فى الثامنة والعشرين من العمر ، وكان يجهل أن رئيس خصيانه والجارية « كوكب » قد رحلا عن الآستانة هربا منه ، بل اعتقد انهما ذهبا الى الحج على أن يعودا اليه بعد أداء الفريضة !

ومات ابراهيم فى سنة ١٦٤٨ ميلادية ، الموافقة لسنة ١٠٥٨ للهجرة ، قبل انتهاء الحرب مع البندقية ، فواصل وزراؤه القتال فى عهد ابنه وخليفته محمد الرابع ، الذى ارتقى العرش وهو فى السابعة من العمر .

أما فرسان مالطة : فقد ساقوا الأسرى معهم الى جزيرتهم ثم الى البندقية ، بعد قتل سوسن واستيلائهم على سفينته .

واعتقدوا ان الطفل الذى أسروه مع أمه انما هو الامير محمد ابن السلطان ابراهيم الأول ، وأن الجارية احدى زوجات السلطان . وهللوا لهذا النصر اعتقادا منهم أن الباب العالى سيفتدى الأسير الصغير بالمال او بعقد صلح لمصلحة البندقية .

غير أن الحقيقة تجلت لهم بعد أن عاد اليهم الرسل الذين أوفدوهم

الى الآستانة ، فأدركوا خطأهم ، وعلموا أن الطفل ابن جارية من أب مجهول ، وليس ابن ابراهيم ووارث عرش السلاطين .

ولكنهم لم يعيدوه الى الآستانة ، بل احتفظوا به مع أمه،التي ماتت حسرة وكمدا بعد وصولها الى البندقية بقليل .

***

اما الطفل ، فقد نصروه ونشأ مسيحيا ، ثم دخل الدير وانخرط فى سلك الرهبان الدومينيكانيين . وظل يقول انه ابن السـلطان ، وظل الناس ينظرون اليه بهذه الصفة ، واطلقوا عليه اسم « بادرى أوتوماتو » او « بادرى اثمان » اى الأب العثماني ، او الأب عثمان !

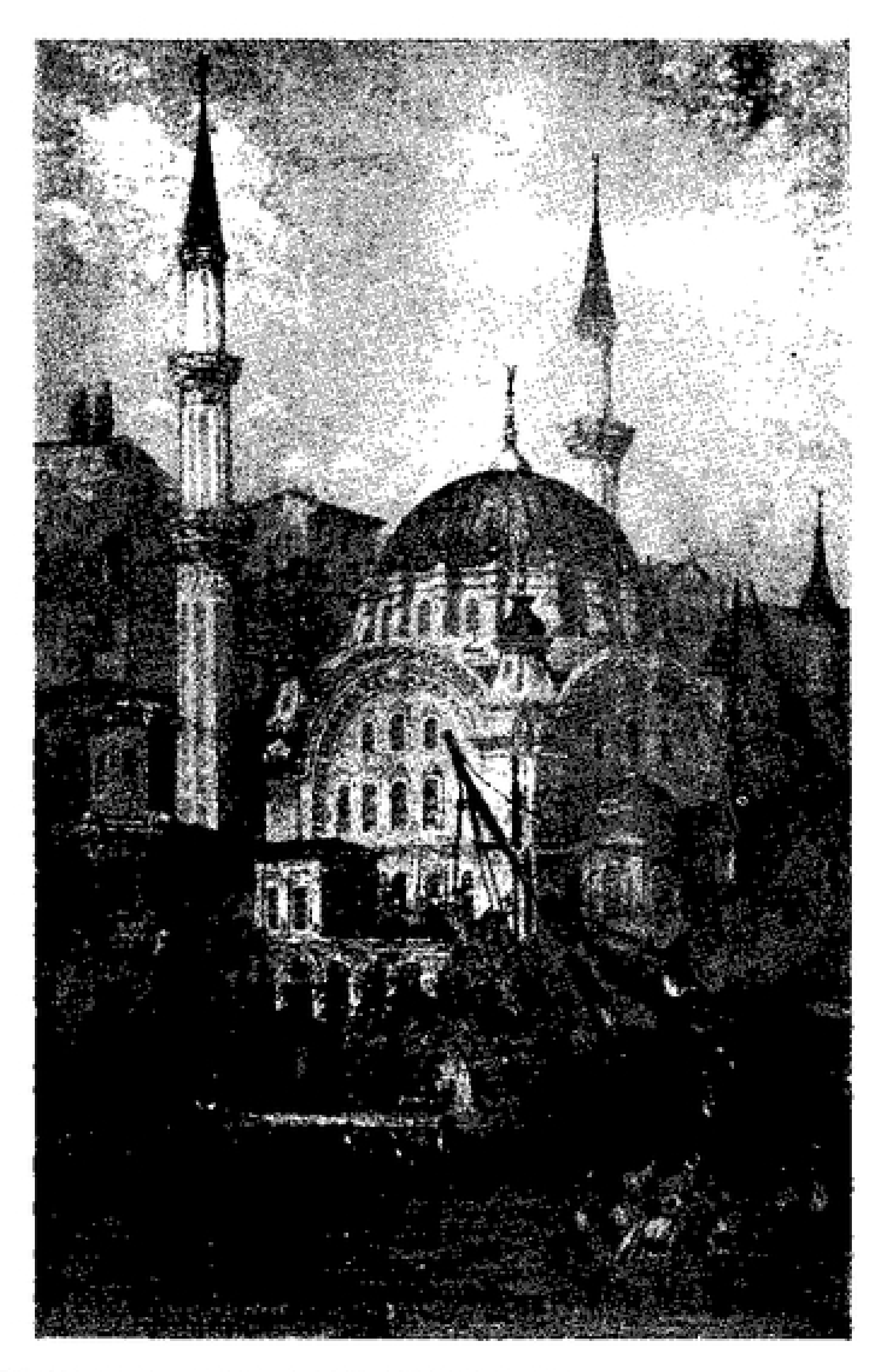
***

وقضي هذا الراهب الذى لم يعرف أباه ، والذى أوشك أن يصبح وارثا لعرش آل عثمان ، جزءا من حياته فى أديرة ايطاليا ، ثم انتقل الى اسبانيا حيث انقطعت اخباره .

ولا يزال اسمه الى الآن مدونا فى سجلات الرهبان الدومينيكانيين باسم الأب عثمان !



يهودية خانت زوجها ، وخانت
أباها ، وخدعت السلطان ،
فكان جزاؤها المـــوت ...



جامع محمود الثاني في ستانبول

اصغى « حزقيال » لخالد افنـدى وهو يبسط له اقتراحه ، ويبلغه الشرط الوحيد الذي يشترطه عليه ليضع ثروته الواسعة عهدة بين يديه. وبعد ان فكر الصراف اليهودى هنيهة ، رفع راسه . واجاب بكلمة واحدة : « اتفقنا ! » .

وفى مساء ذلك اليوم نفسه ، اصبحت « حواء » بنت « حزقيال » فى ذمة « خالد افندى » زوجة حليلة .

لقد رآها « خالد افندى » ، وعلق بهـا قلبه . وكان « حزقيال » يلح عليـه بأن يوليه الاشراف على أعمـــاله واستثمار ثروته . فاغتنم «خالد» الفرصة السانحة . وأفضي الى الصراف بما يجول فى خاطره .

انه مستعد لاجابة « حزقيال » فى طلبه . واختيـاره دون سواه وكيلا لأعماله . ولا يشترط عليه الا ان يزوجه ابنته حواء . وتغلب الطمع فى نفس الرجل على كل عاطفة ،وطغى صـوت المصلحة فى أذنيه على كل صوت ، فربط مصـــير وحيدته برغبة الرجل الثرى صاحب القدرة والجاه ، بدون أن يكون لها علم بالأمر أو يؤخذ رأيها فيه .

وهكذا زفت « حواء » بنت « حزقيال » اليهودية بالرغم منها ، الى « خالد افندى » حامل أختام الســـلطان وهى فى الخامسة عشرة من العمر !

ان « خالد افندى » اقرب الناس الى البادشاه «محمود خان الثانى» سلطان البرين وخاقان البحرين . فقـــد اوفده سفيرا الى باريس ، ثم استدعاه الى الآستانة حيث عينه حاملا لأختام السلطنة .

ولم تغفر الابنة لابيها ما صنعه بها . فحقدت عليه كما حقـدت على زوجها . وراحت تفكر فى الانتقام من الاثنين ، وتعد العدة فى سكون الليالى الطويلة التى تقضيهـــا وحدها . لاهلاك الأب والزوج عـلى السواء ! .

وساعدتها الظروف ، ومكر «حواء» مضمون النجاح . اذا ما وقفت الظروف بجانبها ، فقد كان «لخالد افندى» زوجة اخرى يونانية . سباها

الجند فى احدى غزواتهم ببلاد المورة ، وشـــاءت لها الأقدار أن تكون من نصيب حامل الأختام ، ولكنها كانت تكرهه وتمقته ، بسبب قسوته وغلاظته .

وجاء هذا الشعور الـــذى كان يختلج به صدر الزوجـــة الأولى ، دعامة لشعور العداء الـــذى دفع بالزوجة « الثانية » الى تدبير خطـــة للتخلص من الزوج المشترك . فقد تحالفت اليهودية واليونانية ؛ ومنذ تلك اللحظة التى أصبح التفاهم بينهما تاما ، سطر مصـــير « خالد افندى » حامل الاختام فى صفحات القدر ! وصمت الخطة بين المراتين ونفـــذت بدقة واحكام .

***

دخل « خالد افندى » ذات مساء الى مخدع الزوجة اليهودية فلم يجدها . وسأل الخصيان والجوارى والخدم عنها ، فقالوا جميعا انهم رأوها تخرج وحدها فى الصباح ولم تعـــد . وســـأل الزوجة اليونانية فقالت : انها لا تعلم من أمر ضرتها شيئا .

فانفجرت مراجل الغضب فى صدر الزوج . وعلم الصراف اليهودى بما حدث فلطم خديه وبكى وانتحب . وهدد « خالد أفندى » وتوعد . ولكن ذلك كلـــه لم يمزق الحجب عن سر اختفاء المرأة ، فان « حواء » هجرت دار الزوجية . ! ولكن ، هل لجأت الى أحد فى المدينة ، او رحلت عن البلاد ، أو عمدت الى الانتحار ؟ .

كلا ، ان حواء « اليهودية » لم تفعل شيئا من ذلك كله ، بل نفذت الخطة التى كانت قد أعدت لها وسائل النجاح . فذهبت مع «قمقم أغا» ، النخاس الذى يورد الجوارى والعبيد الى قصور السلاطين . فباعها مع فريق من الاماء ، قائلا : « انها زوجة ضابط روسى هربت من كنف زوجها . وكانت العلاقات بين الدولة العثمانية والامبراطورية الروسية فى ذلك الوقت على أسوأ ما يكون من التوتر » .

وظلت الظروف تساعد المرأة ، والمصادفات تبتسم لها ، فتمكنت فى بضعة أسابيع من التقرب من السلطان وانتزاع ثقته وعطفه . فأصبحت كلمتها مسموعة لديه ككلمة زوجها « خالد افندى » ، الذى ظل يجهل أن المرأة التى هجرته مختارة ، قد أخذت تزاحم نفوذه عند صاحب العرش ، وتهمس فى أذن « محمود الثانى » خلال الليل ، بعبارات تهدم العبارات التى يهمسها هو فى أذنه خلال النهار ! .

ولما ادركت « حواء » أن ثقة السلطان في زوجها قد تزعزعت . تحولت الى الصدر الأعظم « عبد الله باشا » . وهو من صنائع « خالد افندى » الذى رفعه الى دست الوزارة . وجعلت تدخل فى روعه أن حامل الأختام ناقم عليه سرا . وأنه يسعى لعزله من منصبه . بل لقتله اذا استطاع . وأن خير وسيلة لاتقاء شره . أن يتحالف مع زعماء فرقة « الانكشارية » . الذين يكرهون حامل الأختام ويعلمون أنه يكيد لهم فى الخفاء ويعد العدة للفتك بهم .

اثارت الزوجة اليهودية اذن الشكوك والريب حول زوجها . وفى الوقت ذاته ، كانت الزوجة اليونانية تنفذ الشطر الآخر من المؤامرة على الزوج المشترك . فتحرضه على فرقة « الانكشارية » . وكان خالد من اشد الخصوم عداء لأولئك الجنود الطغاة الجامحين . فاندفع الرجل فى محاربتهم جهارا ، موقنا أن السلطان سيؤيده . لأنه يعتقد منجهته أيضا . أن «الانكشارية» أصبحوا خطرا على العرش وعلى البلاد . بما يرتكبونه من اعمال الفوضى والفساد .

وفى صباح يوم ما ، زحفت جموع « الانكشارية » الى الشوارع والميادين المحيطة بالقصر الهمايوني ، وتعالت هتافات وصيحات بلغت مسامع السلطان : « ليطرد خالد افندى من القصر ! نريد رأس حامل الأختام ! » .

وكانت « حواء » بجانبه فهمست فى أذنه كعادتها : « أعطهم ما يريدون يا مولاى ، ففى ذلك ارضاء لهم وراحة لك ! » .

وكانت تلك المظاهرة من صنع الصدر الأعظم الذى هرول مسرعا الى السلطان ، وقال بعد أن قبل الأرض بين يديه : « لن تهدأ غضبة هؤلاء الجنود الثائرين يامولاى ، الا اذا ضحيت بحامل الأختام من اجلهم ! فسلامة الدولة وانقاذ العاصمة من الفوضى يقضيان بذلك ! » .

فتجهم وجه « محمود الثانى » وتردد قليلا قبل أن يصدر حكمه . ولكن الصيحات والهتافات تضاعفت واقتربت . فالتفت السلطان فى النهاية الى كبير وزرائه وقال : « سنجيبهم الى طلبهم . لأننى أريد أن اتفادى سفك الدماء . ولكننى لا أريد أن يقتل خالد افندى . الذى كان موضع ثقتى وعطفى . فليرسل اذن الى المنفى فى قونية . وأما هؤلاء الجنود العصاة . فاننى سوف أؤدبهم فى المستقبل القريب ! » .

وصل « خالد افندى » الى « قونية » ، ولجـــأ الى تكية من تكايا الدراويش ، على امل ان يستدر عطف «الانكشارية» أصدقائهم وحلفائهم وظن ان حياته قد أصبحت فى مأمن من كل خطر .

وما كان يدرى ان اليهودية والصدر الأعظم عبد الله : شريكها فى المؤامرة ، يواصلان السعى لدى السلطان لحمله على القضاء عليه .

قال « عبد الله » لمحمود الثانى : « ان الانكشارية يا مولاى ينظمون مظاهرة اخرى ، لأنهم علموا ان حامل الأختـــــام لم يمت ، وموته غايتهم وأمنيتهم ! » .

وقالت حواء للسلطان الهائم بحبها : « ان بقاء هـــذا الرجل حيا يا مولاى شـــؤم عليك وعلى العرش ! . . فقد رأيت حلما أزعجنى الليلة واخشى ان يتحقق الحلم ، فاقتله ، اقتله واكفنا شر دسائسه ! » .

وما كاد « خالد افندى » يستقر فى تكيـــة الدراويش فى قونية ، حتى اقبل رسول من الآستانة يحمل أمرا بقتله واخذ رأسه فى سلة الى السلطان ! .

ابرز « خالد افندى » الخط الشريف القاضى بنفيه لا بقتله ، فابرز الرسول خطا شريفا آخر يلغى الخط السابق ويقضى بالقتل خنقا ! .

فثار حامل الأختام ، واستل سيفه ، واراد أن يبيع حياته غالية ، ولكن زبانية الرسول كانوا اسرع منه ، فوثبوا عليه ، وخنقوه بحبل من الكتان ، وفصلوا رأسه عن جسده .

وهمست حواء فى اذن الســــلطان : « مولاى ، ان أملاك حامل الاختام ، وامواله ، وجواهره ، التى استولى عليها بيت المـــال ، ليست غير جزء يسير مما كان فى حوزة ذلك الرجل ، وعند الصراف اليهودى حزقيال الخبر اليقين ! » .

وفى اليوم التالى ، كان « حزقيال » يؤدى حسابا عسيرا ! .

لقد وعده رسل السلطان بأن يعفوا عن حياته ، ويتركوه حرا فى الذهاب الى حيث يشاء ، على شرط ان يسلمهم ثروته وثروة موكله ، فسلمهم « حزقيال » كل شيء ، وبلغت قيمة ما حملوه فى الصناديق الى بيت المال ثمانية ملايين من القروش ! .

وأطلق سراح الصراف ، فذهب الى الميدان الذى عرض فيه رأس

القتيل فى طبق من الفضة ، أمام باب من أبواب القصر . ووقف ينظر الى ذلك الرأس والدموع تترقرق فى عينيه .

ولاحت منه التفاتة ، فاذا به يرى امرأتين تقتربان . ورفعت كل منهما حجابها ، فعرف الصراف ابنته !

فقد ذهبت « حواء » . وكانت على موعد مع ضرتها اليونانية . الى الميدان لالقاء نظرة أخيرة على الزوج الذى كانت المرأتان سببا فى هلاكه . . .

وأسرع الرجل الى ابنته فاتحا ذراعيه . مناديا بصوت تخنقه العبرات : « حواء ! ابنتى ! » .

لكن حواء نفرت منه هاربة . وتجمع الناس سائلين ما الخبر ؟ واذا بهم أمام الصراف اليهودى جثة هامدة على الأرض وقد مات بالسكتة القلبية . واذا المرأتان تخترقان جموع المتطفلين . فتدخل احداهما من باب القصر ، وتختفى الأخرى فى الشوارع والأزقة .

وعلم « محمود الثانى » من جواسيسه أن امرأة من الحريم السلطانى قد خرجت وحدها الى الميدان ، وأن الصراف اليهودى خاطبها فهربت منه مع رفيقة مجهولة .

فبحث السلطان وحقق ، وعلم فى النهاية أن حواء هى تلك المرأة ، واعترفت اليهودية بكل شىء ، وأطلعته على سرها ، فهاله ان تكون تلك المرأة النمامة الدساسة قد استغلت عطفه وثقته ، لتنتقم من زوجها وأبيها ، فأمر بقتلها ! .

وأسدل الستار فى هذه المأساة على جثث ثلاث : جثة خالد افندى ضحية قسوته وغلاظته ، وجثة حواء بنت حزقيال اليهودية ضحية غدرها ومكرها ، وجثة حزقيال اليهودى ضحية جشعه وطمعه . أما الزوجة اليونانية فقد اختفت ولم يسمع عنها أحد خبرا منذ ذلك اليوم .

وأما « الانكشارية » ، فقد لاحقهم السلطان محمود الثانى بنقمته ، وفتك بهم جميعا فى صيف سنة ١٨٢٦ .

« تم الكتاب »

فهـــرس